

أحمد أشقر
مكانة النساء
في العقائد اليهمسلامية
من المسؤولية عن الخطيئة الأولى إلى التبرئة
نينوى

مكانة النساء

في العقائد اليهمسلامية

اسم الكتاب: مكانة النساء في العقائد اليهمسلامية

المؤلف: أحمد أشقر

عدد الصفحات: 96

القياس: 14.5 ✧ 21.5

100 / 2011 م – 1430 هـ



سورية - دمشق - ص ب 4650

تلفاكس: 2314511 11 963 +

هاتف: 2326985 11 963 +

E-mail: ninawa@scs-net.org

www.ninawa.org

العمليات الفنية:

التنضيد والإخراج والطباعة وتصميم الغلاف

القسم الفني - دار نينوى

أحمد أشقر

مكانة النساء

في العقائد اليهمسلامية

(من المسؤولية عن الخطيئة الأولى إلى التبرئة)

لا فرق إذا اعتبرنا الأديان قاطبة، العقائد والشرائع والطقوس، نتاج الواقع المُعاش للحياة الاجتماعية، أو من الوحي والنقل: أي من عند الله والواقع المُعاش بصيرورته وديمومته وتعقيداته كافة. إلا أن تطبيقاتها وفقهها نتاج إنساني بامتياز، نتاج الوعي الجمعي لمجموعة معينة من الناس والمجتمعات. فالإنسانية تستخدم كافة طاقتها المُدرِكة/ وعيها من أجل فهم ما يحيط بها من ظواهر، وما يصادفها من أحداث في إطار وعيها أو من خارجه، للتأثير في مسارها وصيرورتها. وعندما تعجز فإنها تستدعي إيمانها من أجل إيجاد تفسير لظواهرٍ كان وعيها وإدراكها قد عجزا عن تفسيرها وتغيير مسارها. وإذا استعرنا من معجم الأديان، فإن الإدراك/ الوعي، هو «عالَم الشهادة»، والإيمان، هو «عالَم الغيب». أي أن الأديان تعتمد على عالمي الشهادة والغيب ولكنها تقدم الغيب على الشهادة، ليصبح اعتمادها على عالمي الغيب فالشهادة.

نشأت الأديان نشأة صراعية وخلافية مع الواقع الذي ظهرت إليه. فكل دين يصارع ويخالف الواقع الذي نشأ ويعيش فيه، كحال المنظومات المعرفية المختلفة، وكذلك الأديان التي تصارعه على نفس مصادر الثروة والنفوذ المادية والروحية والأخلاقية، كالآلهة والمعتقدات والطقوس والشرائع. ليس هذا فحسب، بل يتصارع داخل الدين الواحد قوى لها مصالح مختلفة في تحديد مساره، وهي التي نسميها طوائف ومذاهب وطرقًا ومدارس مختلفة. وأول هذه الصراعات هو صراع الرجال والنساء، على مستوى النوع

الاجتماعي، متمثلا بـ(عَدَم) و(حَوَه)، كما يخبرنا «التناخ»، الكتاب المقدس لدى اليهود، الذي وضع الأسس لهذا الصراع في إطار عَقَدَيّ (من عقيدة). وكذلك فإن كلا من العهد الجديد، الكتاب المقدس لدى المسيحيين، الذي يقبل «التناخ» ولكن بصيغة «العهد القديم»، الذي هو «التناخ» يواصل فهمهُ المسيحي الذي يمهد لقدوم يسوع المسيح، في وضع أسس عقدية لهذا الصراع. وكذلك القرآن، الكتاب المقدس عند المسلمين، يضع هو الآخر أسساً عَقَدَيّة لهذا الصراع تختلف عمّا جاء به كل من «التناخ» والعهد الجديد. والعقيدة وفق ما يرد في المعجم الوسيط هي: «الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده، وهي في الاصطلاح الديني: ما يقصد به الاعتقاد دون العمل، كعقيدة وجود الله، وبعثه الرسل» (المعجم الوسيط ج2 ص 614). أما الشريعة فهي القوانين التي تُشرع لإدارة حياة الناس في الواقع المُعاش بالاستناد إلى ما ورد في النصوص الأصلية للأديان اليهمسلامية ولا تناقضها أو تعارضها إلا فيما ندر، كما سنشير إلى ذلك في الخاتمة والنقاش. أي أنها تتوسط بين النصّ المقدس والواقع المُعاش. وسنشير في بحثنا هذا إلى تأثير العقيدة على الشريعة من منطلق المقارنة بين العقائد والشرائع في الأديان اليهمسلامية: اليهودية والمسيحية والإسلام.

تهدف هذه الدراسة إلى عرض مكانة النساء في عقائد الأديان اليهمسلامية وشرحها. وسوف نذكر النقاط التي تأتلف فيها، والتي تختلف فيها هذه العقائد. بالرغم من كون موضوع بحثنا، هو مكانتهن في هذه العقائد، إلا أننا لكي نبرهن على ما تقول به كل عقيدة، فسوف نقتبس ثلاثة من مفكري العصر الوسيط لكي يشرح كل واحد منهم مكانة النساء في دينه. وكذلك الشريعة المستمدة من العقيدة، في عدة أمثلة لنعي تأثير العقيدة على الشريعة.

تعتبر هذه الدراسة دراسة تأصيلية لمكانة النساء في العقائد

اليهمسلامية. وسيكون اعتمادنا على المصادر الأولية: «التناخ» والعهد الجديد والقرآن، ثم على الآداب الكلاسيكية الأخرى، التي من شأنها أن توضح ما بَهُم في المصادر الأولية. ولن نعتمد إلا بالقليل على المراجع المعاصرة. والهدف، هو تأصيل هذه الدراسة وليس نقاشا مع دراسات أخرى. فقد أنشأنا هذه الدراسة من منطلق علم الأديان المقارن، لكي ندلل على أن الأديان تنسجم انسجاما مع الواقع الذي تعايشه من خلال السيرورة والصيرورة التاريخيتين؛ فما نراه في اليهودية يختلف بعض الشيء عما نراه في المسيحية، وما نراه في الإسلام يتعارض كلية مع ما نراه في اليهودية والمسيحية، كما سينجلي لنا من صفحات هذا البحث، وذلك بسبب اختلاف المجتمعات والحقب التاريخية والمحركات والدوافع التي تحركها.

تتوزع هذه الدراسة على خمسة فصول:

1- اليهودية :

صوت واحد فقط:

نشرح فيه عن تحميل (حوه) مسؤولية تحريض وإغواء (عدم) والتمرد على إرادة (يهوه ءلوهيم) العليا، والأكل من شجرة الوعي. وبسبب «إغواء» المرأة للرجل تم تحميلها بالكامل مسؤولية استدخال الخطيئة الأولى إلى الجنس الإنساني. أي أن اليهودية أورثت جميع النساء مسؤولية «خطيئة» جدهن، وأورثت جميع الرجال شرعية عقابهن دون تحديد جدول زمني لنفاذ هذا العقاب.

2- المسيحية :

صوتان مركزيان ومكانة خاصة لمريم العذراء:

رغم أن المسيحية انبثقت من رحم اليهودية، سواء كانت تكملها أو

تناقضها في جوهر عقائدها وشرائعها، فإن المسيحية، كما تظهر في العهد الجديد، تأتلف وتختلف بعض الشيء مع عقائد وشرائعها اليهودية. وسنقوم بشرح انقسام العهد الجديد على نفسه في رأيين/ صوتين، لتحديد مكانة المرأة والنساء في العقيدة؛ الصوت الأول هو صوت يسوع المسيح، مؤسس المسيحية الذي لم يتمكن من بلورة أسسها بنفسه ومنهجه، لأنه أُبعد عن ميدان الأحداث بصلبه، بتحريض من اليهود وتنفيذ سلطات الاحتلال الروماني؛ فيسوع لم يلق على (حوه/ النساء) مسؤولية الخطيئة الأولى، وبذلك يكون قد برأها منها. وبولس اليهودي الأصل والمعتقد، يواصل إلقاء مسؤولية الخطيئة الأولى عليها/ عليهن. وكذلك سنعرض لموقف المسيحية من والدة يسوع المسيح، وهو صوت يخصّ مريم دون سواها من النساء. والصوت بالنسبة إلينا في هذا المقام، هو المكانة أيضا. وكذلك سوف نشرح أهميّة وجود أربع نساء «خاطئات أو عليهن اللوم» في نسب يسوع المسيح «الملوكي».

3- الإسلام :

صوت واحد، ومكانة خاصة لمريم العذراء:

إن نشأة الإسلام في السياق التاريخي بعد اليهودية والمسيحية، قد أتاح له إمكانية المواجهة معهما. ومن المعروف أن الإسلام أجرى مواجهات مع الأديان والمنظومات المعرفية التي سبقته؛ تارة كان يجريها بصمت كعادة القرآن في عدم الإفصاح عن كل شيء، وتارة علانية عندما تستدعي الأمور ذلك. فالقرآن لم يعتمد الإسهاب والإطناب في كل قضيّة، بل بتحديد محدداتها ووضع خطوطها العامة فقط، وقد تكفل الأثر والتفاسير بإيضاح غير الواضح فيه. وفي هذا السياق يجري القرآن مواجهة صامتة؛ إلا أن بحثنا سيقوم باستنطاق هذا الصمت خلال

المقارنات التي سيقوم بها. سنشرح في هذا الفصل مساواة القرآن/ الإسلام، بين النساء والرجال في العقيدة. أي أنه قام بتبرئة المرأة/ النساء من هذه المسؤولية، مسؤولية الخطيئة الأولى. وكذلك سنعرض موقف القرآن من مريم العذراء، والدة عيسى المسيح. وهو موقف وصوت يخصّ مريم دون سواها من النساء.

قد يتساءل البعض: لماذا يشمل بحثنا الحديث عن مكانة مريم العذراء!؟ ونجيب إن اشتمال بحثنا على مكانة مريم العذراء، هو للتأكيد على أن مكانتها- رغم أنها امرأة- أرفع من مكانة الرجال في الإيمان والتعبد والتقرب إلى الله. وموقف العهد الجديد منها، هو الذي منح النساء الحقّ في أن يصبحن قديسات، بالرغم من مسؤوليتهن عن الخطيئة الأولى كما هي الحال عند بولس.. وهو أيضا سمح للمسلمين الشيعة بأن يصفوا فاطمة الزهراء بـ«البتول»، أي المنقطعة إلى العبادة، وتحديد مكانتها الأرقى بين نساء المسلمين، علما أنها لم تذكر في النصّ القرآني.

4- موقف ثلاثة مفكرين :

ونعرض في هذا الفصل لمواقف ثلاثة من أبرز المفكرين من أتباع هذه الأديان، من النساء ومكانتهن في الواقع المُعاش/ الحياة الاجتماعية. وهم: أبو الوليد بن رشد (1126- 1198)، وموسى بن ميمون (1138- 1204) وتوماس الأكويني (1225- 1274). ولم يكن اختيارنا للثلاثة المذكورين اختيارا اعتباطيا أو رغبوياً دون سياق منطقي. فالمنشغلون بالدراسات الدينية والثقافية المقارنة يعتبرونهم أهم مجددين في أديانهم وثقافتهم في العصر الوسيط. ونادراً ما نجد دراسة أو بحثاً عن واحد دون الآخرَين. الأمر الذي يتيح للدارسين إلقاء نظرة موضوعية على أفكار تلك الحقبة، ومدى التعمق والتجديد الذي حققه كل واحد منهم في دينه.

5- تطبيقات في الشريعة :

وفي هذا الفصل سنعرض خمسة أمثلة تدل على مدى تأثير العقيدة على مكانة النساء في الشريعة (الواقع المُعاش). والأمثلة هي: الأول- تقلد النساء المناصب العامة. والثاني- شهادة النساء في المحاكم. والثالث- الميراث والحرمان منه. والرابع- حقّ الرجل في بيع ابنته. والخامس- النساء والمتعة الجنسية. فهذه الأمثلة تدمج لنا الخاص والعام في حياة النساء، وفيها نقرأ مدى تأثير العقيدة على تحديد مكانتهن في الحياة العامة، الواقع المُعاش. وهذه التطبيقات المقارنة ستتيح معرفة تأثير العقيدة على الشريعة؛ كما يتيح لنا فهمًا جديدًا للعقيدة في مستواها العملي.

خاتمة ونقاش :

سنعرض هناك النتائج التي توصلنا إليها، ألا وهي الفروق الجوهرية في موقف العقديتين اليهودية والمسيحية، مقارنة بموقف العقيدة الإسلامية، من مكانة النساء، ليس في العقيدة فقط، بل في الواقع المُعاش/ الحياة الاجتماعية. وكذلك أهميتها عندما يجري الحديث عن مكانة النساء في الأديان.

في العادة تُخصص الخاتمة للحديث عن أهم ما ورد في البحث. إلا أني أضفت إليها: النقاش، وذلك لمناقشة بعض الأفكار الواردة فيها والتي من شأنها أن تدفع قُدمًا نضال النساء والمجتمع أيضاً. وفي النقاش نستنطق الفقهاء والمفكرين المتنورين في الفكر المسيحي والإسلامي، خاصة يسوع المسيح وأبو الوليد بن رشد.

وفيما يخص المصادر والمراجع عن الديانة اليهودية، فقد اقتبستها بلغتها الأصلية، العبرية «التناخية» والآرامية. أي أني استخدمت النصّ الأصلي للـ«تناخ»، إلا أني وعندما كنت مضطراً إلى إيراده هنا باللغة

العربية، اتكأت على الترجمات العربية له، ثم راجعتها لكي تتطابق مع النص الأصلي في العبرية «التناخية»، وقمت أيضا بترجمة بعض الأعداد/ الآيات ترجمة جديدة وفق معرفتي باللغتين العبرية «التناخية» والعربية وخبايا النصّ. لذا، قد يجد القراء المطلعون على الترجمة العربية له بعض الفروق بين ما يرد في الترجمات العربية وترجمتي[1]. وكذلك قمت بترجمة بعض الاقتباسات الآرامية من التلمودين الـ«بابلي» والـ«يروشلمي» إلى اللغة العربية خصيصاً لهذا البحث، حيث لم أجد ذكرا للاقتباسات التي أوردها هنا في أي مرجع بالعربية.

بالطبع، من حقّ كل من يقرأ هذا البحث أن يسأل لماذا استخدمت الاسم العبري: «التناخ»، في السياق اليهودي، والعهد القديم في السياق المسيحي، وليس العهد القديم والتوراة كما هو دارج في الأدبيات العربية؟ وجوابي هو: «التناخ»، هو الكتاب المقدس لدى اليهود. ويدعى بالعبرية: توره نبِئيم كِتوبيم، ويقرأ باختصار: ت. ن. ك/ تناخ. وقد كتبناه بصيغته العبرية ولم أقم بترجمته إلى العربية (العهد القديم)، كي نفرق ونميّز بين «التناخ» اليهودي، والعهد القديم المسيحي. فـ«التناخ» هو الكتاب المقدس كما يتبناه ويفهمه اليهود وفقا لمعتقداتهم وأيديولوجيتهم، وكما جاء في الآداب الأخرى كالتفاسير والتلمودين وأعمال الفقهاء اليهود على مرّ العصور كافة. أما العهد القديم فهو ترجمة «التناخ» كما يقبلها ويفهمها المسيحيون، لأن «التناخ» وفقا لمعتقدات المسيحيين الذي أصبح عندهم العهد القديم، جاء ليبشر بيسوع المسيح بن مريم، وفعلا جاء بالعهد الجديد الذي يتمم نبوءات العهد القديم، ثم صلِب، وها هم الآن ينتظرون عودته. أما اليهود فينتظرون مجيء «المشيح»، الذي هو ليس المسيح كما يؤمن به المسيحيون والمسلمون.

---

[1] لمزيد عن إشكاليات ترجمة التناخ إلى العربية يرجى مراجعة: أشقر، 2004: 59- 65.

يتساءل البعض عن توجه كل من أتباع الديانات الثلاث إلى كتبهم المقدسة، فنقول: يؤمن المسلمون بأن القرآن «منزل من عند الله»، (إلا أن فئة قليلة وهي المعتزلة تعتبر القرآن «مخلوقاً» وهذه المسألة كلامية في غاية التعقيد والحساسية). أما اليهود والمسيحيون فيؤمنون بأن «التناخ» والعهد الجديد «موحى بهما من الله»، وليس منزليّن مباشرة منه. أي أن كتبة الأسفار المختلفة يؤمنون بأن الوحي أوحى إليهم بما كتبوه. فمكانة كل كتاب لأتباع كلّ ديانة، شبيهة ومساوية لمكانة الكتابين لدى أتباع الديانتين الأخريين: فـ«التناخ» مقدس لدى اليهود، والعهدان الجديد والقديم كتاب واحد مقدس لدى المسيحيين، والقرآن مقدس لدى المسلمين.

وعليه، فإن الدراسة التي بين أيدينا هي دراسة فكرية، ولا تجيب عن أي سؤال حول مكانة النساء في الواقع المُعاش، بل يجب أن توجّه هذه الأسئلة إلى علمَي الاجتماع والسياسة، لفهم مكانتهن بدقة وموضوعية. فهذه الدراسة لا تجيب عن أي سؤال من هذه الأسئلة، ولذلك يتوجب توجيه الأسئلة والأبحاث إلى علوم السياسة والمجتمع لتشخيص مكانة النساء في الواقع المُعاش وفهما، وكذلك إلى دراسات علم الإنسان/ الأنثروبولوجيا لفهم علاقة العقائد والشرائع الدينية بمكانة النساء في عصرنا الراهن.

قد يعتقد البعض أن البحث يفضّل الإسلام على اليهودية والمسيحية، إلا أن الأمر ليس كذلك قطعا؛ فتحسن مكانة النساء في العقيدة والشريعة في الإسلام مقارنة بمكانتها في اليهودية والمسيحية، ما هو إلا تأكيدٌ لما أتينا إليه من قول في بداية المقدمة: إن تطبيقاتها وفقه الأديان إنما هي نتاج إنساني بامتياز، نتاج الوعي الجمعي لمجموعة معينة من الناس والمجتمعات. فالإسلام المتأخر عن اليهودية بعشرين قرنًا وعن المسيحية بستة قرون، هو نتاج التطور الاجتماعي والمجتمعي لمجتمع شبه الجزيرة العربية في حينه،

مقارنة لما كانت عليه البيئتان التي نشأت كل من اليهودية والمسيحية فيهما .
وعليه، تغيرت وتطورت مكانة النساء فيه، وما اختلاف/ تحسن مكانتهن في العقيدة والشريعة في الإسلامية إلا تعبيرٌ عن التغير الحاصل في مجمل علاقات مركبات المجتمع العربي في شبه جزيرة العرب.

1
اليهودية
صوت واحد فقط

«إنّي في الإثم ولدت
وفي الخطيئة حبلت بي أمي» (مزمور 51: 7).

تعتبر الديانة اليهودية أوّل الأديان اليهمسلامية من حيث النشأة التاريخية والفكرية. وبما أنها كذلك فإن صدى ما جاء فيها سوف نسمعه عاليا في المسيحية، رفضا من يسوع المسيح وقبولا من الرسول بولس وصمتا متحديا من الإسلام.

يبدأ «التناخ» الحديث عن قصة خلق الكون وجميع البرايا الأخرى فيه. ثم يخصص حيزا خاصًا لقصة خلق بني الإنسان. فيطالعنا بقصتين مختلفتين عن كيفية خلق الإنسان، الرجل والمرأة (ءدم) و(حوه). يقول في القصّة الأولى: «وَقَالَ ءلوهيم: «نَعْمَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا، فَيَتَسَلَّطُونَ عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ، وَعَلَى كُلِّ الأَرْضِ، وَعَلَى جَمِيعِ الدَّبَّابَاتِ الَّتِي تَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ» فَخَلَقَ ءلوهيم الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ عَلَى صُورَةِ ءلوهيم خَلَقَهُ ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُمَا» (تكوين 1: 26- 27). أما في القصّة الثانية فإنه يقول: «وَأَخَذَ يهوه ءلوهيم ءدَمَ وَوَضَعَهُ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَهَا وَيَحْفَظَهَا. وَأَوْصَى يهوه ءلوهيم ءدَمَ

قَائِلاً: «مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ أَكْلاً، وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلاَ تَأْكُلْ مِنْهَا، لأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ» وَقَالَ يهوه ءلوهيم: «لَيْسَ جَيِّدًا أَنْ يَكُونَ ءدَمُ وَحْدَهُ، فَأَصْنَعَ لَهُ مُعِينًا نَظِيرَهُ» (تكوين 2: 15- 17). ويضيف: «فَأَوْقَعَ يهوه ءلوهيم سُبَاتًا عَلَى ءدَمَ فَنَامَ، فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلاَعِهِ وَمَلأَ مَكَانَهَا لَحْمًا. وَبَنَى يهوه ءلوهيم الضِّلْعَ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ ءدَمَ امْرَأَةً وَأَحْضَرَهَا إِلَى ءدَمَ فَقَالَ ءدَمُ: «هذِهِ الآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي هذه تُدْعَى امْرَأَةً لأَنَّهَا من امْرِءٍ أُخِذَتْ» لذلكَ يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ وَيَكُونَانِ جَسَدًا وَاحِدًا. وَكَانَا كِلاَهُمَا عُرْيَانَيْنِ، آدَمُ وَامْرَأَتُهُ، وَهُمَا لاَ يَخْجَلاَنِ» (تكوين 2: 21- 25). وبعدها قام (ءدم) بتسمية زوجته «وَدَعَا ءدَمُ اسْمَ امْرَأَتِهِ حَوه لأَنَّهَا أُمُّ كُلِّ حَيٍّ» (تكوين 3: 20).

النصّان المذكوران ينطويان على اختلافين جوهريين فيما بينهما: الأول- في القصة الأولى، الخالق، هو الإله (ءلوهيم). وفي الثانية، الخالق، هو الإله (يهوه ءلوهيم). والثاني- كان الإله (يهوه) قدّ خلق (ءدم) و(حوه) معًا في آن واحد، كما يرد في القصّة الأولى. أما في الثانية، فقد قام الإله (يهوه ءلوهيم) بانتزاع ضلعٍ من (ءدم) وخلق منه امرأة له، وأطلق عليها (ءدم) اسم (حوه). نصّ القصة الأولى ومنطقها يشيران إلى مساواة تامة في عملية الخلق (والمكانة أيضًا). إلا أنّ نصّ القصة الثانية يصادر من المرأة والنساء مساواتهن بالرجال ويعتبرهن أجزاء من الرجال وتحت سلطتهم. أي أنه صادر أيضا مكانتهن المتساوية. بهذا خطا «التناخ» خطوته الأولى في سبيل تفضيل الرجال على النساء في العقيدة.

يلخص كاظم حجاج قصة الخلق «التناخية» قائلا: «1- أدم [(ءدم)] الذكر، أخذ امتياز المخلوق الأولى على حوّاء [(حوه)]- الأنثى، التي خُلقت لاحقا!/ 2- حواء خُلقت من ضلع آدم [(ءدم)]، ومن هنا تأتي تبعيتها

الجسدية، ومن ثم المعنوية! 3- خُلقت حواء [(حوه)] لمعاونة آدم [(عدم)]، ولم تخلق لذاتها!.. 4- الحيّة- إبليس لم تأت لآدم [(عدم)]، حين كان وحيدا، لكي تخدعه، بل انتظرت، أو حُملَت على الانتظار، حتى تُخلق حواء [(حوه)]، لأن خديعة آدم [(عدم)]- الذكر غير مطروحة إلا من خلال أنثاه! 5- عُري آدم [(عدم)] لم يكن معيبا قبل خلق حواء [(حوه)]، لكنه- العري- دُمِغ بالعيب من خلال وجود أنثوي مجاور، ما جاء ليلمه، بل ليغريه! 6- إن استعداد جسد الأنثى للحمل وآلام المخاض والولادة، ووجود ثدييها للرضاع، لم يكن محل امتياز وتعاطف أبدا، بل عقوبة لها من الربّ التوراتي [«التناخي»]: «تكثيرا أُكثر أتعاب حبلك، وبالوجع تلدين أولادا [تكوين 3: 16]» (حجاج؛ 2001: 8).

بعد أن لاحظنا الفروق، كما يعرضها «التناخ» وحجاج، لا بدّ لنا من محاولة استكشاف أسباب ذلك. يجمع الباحثون النقديون المشغلون في الدراسات «التناخية»، على أن خلافا ما حدث بين مؤلفي وكتاب نصّ القصّة (القصّتين «التناخيتين»). وأن وجود قصّتين مختلفتين لحادث واحد، هو تسوية بينهم. بالطبع، يمكن قبول تفسيرهم إذا ما بقينا في إطار دراسة المبنى والمستوى الفني لتلك النصوص. وبما أن بحثنا لا يتعلق بالنصّ أبدا، بل بالعقيدة، لا بدّ من البحث عن الأسباب العقدية لذلك. والذي يسعفنا في استكشاف العقائدي، هو الأنثروسوسيولوجي، والذي معناه ما يأتي: لقد نشب خلاف حول إيجاد تسوية للصراع الاجتماعي الذي نشأ بين مجموعات مختلفة، وعندما توصلوا إلى صيغة نهائية لإنهائه، تمت صياغة القصتين معا في اتفاق واحد؛ فقد قبل الإلهان (علوهيم)، و(يهوه علوهيم[2])،

---

[2] أصبح واضحا لدى باحثي «التناخ» النقديين أن اليهودية «التناخية» هي ديانة متعددة الآلهة فـ«التناخ» يذكر عدة أسماء للآلهة، مثل: (يهوه) و(علوهيم)- و(عِل) لكن كل واحد مهم له صفاته التي تختلف عن صفات الآخر. مثلا، يظهر «الإله» (يهوه) متجسدا كإنسان في

اللذان كانا يمثلان المجموعتين المتخالفتين على ذكر كل منهما لروايتها (في قصة الخلق). لكن لم تنته التسوية أو الاتفاق عند قبول كل منهما رواية الآخر فقط، بل اتفقا على إعلاء شأن الرجال في الحياة الاجتماعية والدينية المستقبلية. فقد ورد في «التناخ» ما يأتي: «وَكَانَتِ الْحَيَّةُ أَحْيَلَ جَمِيعِ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي عَمِلَهَا يهوه ءلوهيم فَقَالَتْ لِلْمَرْأَةِ: «أَحَقّاً قَالَ ءلوهيم لاَ تَأْكُلاَ مِنْ كُلِّ شَجَرِ الْجَنَّةِ؟» فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِلْحَيَّةِ: «مِنْ ثَمَرِ شَجَرِ الْجَنَّةِ نَأْكُلُ وَأَمَّا ثَمَرُ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ فَقَالَ ءلوهيم: لاَ تَأْكُلاَ مِنْهُ وَلاَ تَمَسَّاهُ لِئَلا تَمُوتَا». فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: «لَنْ تَمُوتَا! بَلِ ءلوهيم عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلاَنِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَـءلوهيم عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ». فَرَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلأَكْلِ وَأَنَّهَا بَهِجَةٌ لِلْعُيُونِ وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ. فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ وَأَعْطَتْ رَجُلَهَا أَيْضاً مَعَهَا فَأَكَلَ. فَانْفَتَحَتْ أَعْيُنُهُمَا وَعَلِمَا أَنَّهُمَا عُرْيَانَانِ فَخَاطَا أَوْرَاقَ تِينٍ وَصَنَعَا لأَنْفُسِهِمَا مَآزِرَ. وَسَمِعَا صَوْتَ يهوه ءلوهيم مَاشِياً فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ فَاخْتَبَأَ ءدَمُ وَامْرَأَتُهُ مِنْ وَجْهِ يهوه ءلوهيم فِي وَسَطِ شَجَرِ الْجَنَّةِ. فَنَادَى يهوه ءلوهيم ءدَمَ: «أَيْنَ أَنْتَ؟» فَقَالَ: «سَمِعْتُ صَوْتَكَ فِي الْجَنَّةِ فَخَشِيتُ لأَنِّي عُرْيَانٌ فَاخْتَبَأْتُ». فَقَالَ: «مَنْ أَعْلَمَكَ أَنَّكَ عُرْيَانٌ؟ هَلْ أَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ أَنْ لاَ

عدة مواقع في «التناخ»: قصة (يَعْقُب/ يعقوب) في (تكوين 32: 23- 31). ولم تتحول اليهودية إلى ديانة توحيدية، كما هي حال الإسلام في القرن الثاني عشر عند الفقيه موسى بن ميمون، المعروف بالرمبام، نتيجة لتأثره بالإسلام وسجاله مع المسيحية، فقال: بـ«إن الله خالق ومدبر كل الخلائق وهو وحده عمل ويعمل وسيعمل كل الأعمال» (الرمبام- مشنه توره، شوفطيم، سنهدرين الفصل العاشر). وسأقوم بشرح قضية التوحيد عند ابن ميمون في مقدمة تحقيقي للرسالة اليمنية له، والذي سيصدر قريبا. أما التوحيد فهو إسلامي بامتياز بدليل قول القرآن: «قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد» (سورة الإخلاص).

تَأْكُلَ مِنْهَا؟» فَقَالَ ءدَمُ: «الْمَرْأَةُ الَّتِي جَعَلْتَهَا مَعِي هِيَ أَعْطَتْنِي مِنَ الشَّجَرَةِ فَأَكَلْتُ» فَقَالَ يهوه ءلوهيم لِلْمَرْأَةِ: «مَا هَذَا الَّذِي فَعَلْتِ؟» فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: «الْحَيَّةُ غَرَّتْنِي فَأَكَلْتُ» فَقَالَ يهوه ءلوهيم لِلْحَيَّةِ: «لأَنَّك فَعَلْتِ هَذَا مَلْعُونَةٌ أَنْتِ مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَمِنْ جَمِيعِ وُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ عَلَى بَطْنِك تَسْعِينَ وَتُرَاباً تَأْكُلِينَ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِك وَأَضَعُ عَدَاوَةً بَيْنَك وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ وَبَيْنَ نَسْلِك وَنَسْلِهَا. هُوَ يَسْحَقُ رَأْسَك وَأَنْتِ تَسْحَقِينَ عَقِبَهُ» وَقَالَ لِلْمَرْأَةِ: «تَكْثِيراً أُكَثِّرُ أَتْعَابَ حَبَلِك بِالْوَجَعِ تَلِدِينَ أَوْلاَداً. وَإِلَى رَجُلِك يَكُونُ انقيادك وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْك» وَقَالَ لِءدَمَ: «لأَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِ امْرَأَتِكَ وَأَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ قَائِلاً: «لاَ تَأْكُلْ مِنْهَا مَلْعُونَةٌ الأَرْضُ بِسَبَبِكَ بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ وَشَوْكاً وَحَسَكاً تُنْبِتُ لَكَ وَتَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ بِعَرَقِ وَجْهِكَ تَأْكُلُ خُبْزاً حَتَّى تَعُودَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا. لأَنَّكَ تُرَابٌ وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ. وَدَعَا ءدَمُ اسْمَ امْرَأَتِه حوه لأَنَّهَا أُمُّ كُلِّ حَيٍّ وَصَنَعَ يهوه ءلوهيم لِءدَمَ وَامْرَأَتِه أَقْمِصَةً مِنْ جِلْدٍ وَأَلْبَسَهُمَا. وَقَالَ يهوه ءلوهيم: «هُوَذَا الإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا عَارِفاً الْخَيْرَ وَالشَّرَّ. وَالآنَ لَعَلَّهُ يَمُدُّ يَدَهُ وَيَأْخُذُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ أَيْضاً وَيَأْكُلُ وَيَحْيَا إِلَى الأَبَدِ» فَأَخْرَجَهُ يهوه ءلوهيم مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَ الأَرْضَ الَّتِي أُخِذَ مِنْهَا. طَرَدَ الإِنْسَانَ وَأَقَامَ شَرْقِيَّ جَنَّةِ عَدْنٍ الْكَرُوبِيمَ وَلَهِيبَ سَيْفٍ مُتَقَلِّبٍ لِحِرَاسَةِ طَرِيقِ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ (تكوين 1: 1- 25).

من النصّ «التناخي» السالف، نفهم ما يأتي: أولا- مثلما اتفق كل من (ءلوهيم) و(يهوه ءلوهيم) على ضرورة إيجاد تسوية بينهما، برزت في سرد كل منهما لروايته في عملية الخلق، فإنهما يتفقان أيضا على تحذير المخلوق/ المخلوقين (ءدم) و(حوه)، من منافستهما على مصدر الثروة: المعرفة والوعي والإدراك. وعندما يجرب المخلوق/ المخلوقان حظهما في المنافسة، ويُهزمان، ينفرد (يهوه ءلوهيم) في الاقتصاص منهما ويعاقبهما.

ثانيا- جاء عقاب (ءدم) و(حوه) منسجما مع ما قام به كل واحد منهما في عملية المنافسة- نستثني الأفعى طبعا. فـ(حوه) التي أقنعت (ءدم) بمحاولة تحدي إرادة (يهوه)، حاولت أيضًا السيطرة على مصادر الثروة بمقدار أكثر من (ءدم)، لأنها هي التي كانت قائدته في هذه «المعركة». لذلك عندما عاقبهما (يهوه ءلوهيم)، صادر من (حوه) قدرتها على المبادرة، وألحقها بالرجل الذي لم يبادر أبدا، بل كان تحت تأثير (حوه). فقد حاكمها قائلا: **«تَكْثِيراً أُكَثِّرُ أَتْعَابَ حَبَلِكِ بِالْوَجَعِ تَلِدِينَ أَوْلاَداً. وَإِلَى رَجُلِكِ يَكُونُ انقيادك وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْكِ»**. فجوهر العقاب هو: الانقياد والسيادة للرجل.

أما عقاب الرجل (ءدم) فكان عقابا واقعيا بامتياز، كما ورد في نصّ الحكم: **«بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ وَشَوْكاً وَحَسَكاً تُنْبِتُ لَكَ وَتَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ بِعَرَقِ وَجْهِكَ تَأْكُلُ خُبْزاً حَتَّى تَعُودَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا»**. أي أنه طرده من الحياة الآمنة المستقرة إلى حياة العمل والقلق. فعقاب «التناخ» للرجل والمرأة كما فهمناه في النصّ «التناخي»، هو الحد الفاصل بين المعرفة والوعي وعدمهما. أي أن (ءلوهيم يهوه) «التناخي» عاقبهما لوعيهما وتمردهما عليه عندما أكلا من شجرة المعرفة، ومارسا الجنس تعبيرا عن إحساسهما بذواتهما وإدراكهما لها.

نذكر أن الأفعى هي الصورة التي جاء وظهر بها الشيطان لـ(حوه). ورد في التكوين الكبير ما يأتي: **«لأن حوه خُلقت- خُلق الشيطان معها»** (التكوين الكبير 17[3]). أي أن المعصية وتحدي الإرادة الإلهية، هي صفات ملازمة للمرأة والنساء. وعليه تم تجريدها من العديد من الصفات الإنسانية، واقتصارها على الرجل فقط. وقد توجهت الأفعى بالإغراء إلى

---

[3] ويعني: أدب كُتِب في فلسطين في القرون الميلادية الأولى وتفسير لأعداد (آيات) سفر التكوين، ويهدف إلى سد الفراغ الموجود في القصص المختلفة، وتفسير ينبع من روح النصّ وليس من حرفيته.

المـرأة، «[-] لأن النـساء- سـخيفات ويمتـثلن لكـل المخلوقـات [-]» (التكـوين الكبير 19).

أمـا مـا جـاء في إحـدى الوصـايا العـشر، فإنـه يكـرّس مـسخ إنـسانية المـرأة، واعتبارهـا جـزءاً مـن ممتلكـات الرجـل، بـدليل قولـه: «لاَ تَـشْتَهِ بَيْتَ قَرِيبِكَ لاَ تَشْتَهِ امْرَأَةَ قَرِيبِكَ وَلاَ عَبْدَهُ وَلاَ أَمَتَهُ وَلاَ ثَوْرَهُ وَلاَ حِمَارَهُ وَلاَ شَيْئاً مِمَّا لِقَرِيبِكَ» (الخروج 20: 17). لأنـه وضـع المـرأة (النـساء عمومـا) في دائرة الممتلكـات الخاصـة، مثـل الـدواب والعبيـد والإمـاء والأغـراض الأخـرى. لذا يحقّ للرجل بيع ابنته، كما جاء في «التناخ»: «وَإِذَا بَاعَ رَجُلٌ ابْنَتَـهُ أَمَـةً لاَ تَخْرُجُ كَمَا يَخْرُجُ الْعَبِيدُ» (الخروج 21: 7).

أما صـاحب المزامير فيوسع مسؤولية المرأة عن كل ما هـو سلبي، حتـى مـسئوليتها عـن الخطيئـة الأولى، بـدليل قولـه: «إنّـي في الإثـم ولـدت/ وفي الخطيئة حبلت بي أمي» (مزمـور 51: 7). ويؤكد يهوشـع بن سيراخ ما جاء به صاحب المزامير، بـدليل قولـه: «مِنَ الْمَرْأَةِ ابتَدَأَت الخَطِيئَة ويـسببها نمـوت نحن أجْمَعُون» (ابن سيراخ: 25: 33).

يعتقد كاظم الحجاج أن «الحية موجـودة في الجنـة بإرادة الخـالق، إلى جوار [(حوه)] و[(عدم)]، وكأن مبرر وجودها الوحيد- بل خلقهـا أصـلا- هـو أن تؤدي دورهـا التحريـضي في إنجـاح تلـك الخديعـة الكونيـة، كانـت ضـحيتها حـواء [(حـوه)]، ومـن ثـم [(عدم)]..وكـأن الخطـأ صـار ملازمـا لحالـة التـزاوج الأولى تلك- أو محـض الالتقـاء بـين ذكـر وأنثـى». ويـضيف: «وهـي خطيئـة لا بدّ أن تقـع، لاقترانهـا أصـلا بمكونـات الكائن البـشري الـذي ينطق ويفهـم مـا يقال ويفكر، ومن ثم يقرر..» (الحجاج؛ 2001: 16).

وننهي محور حديثنا هذا، بـالقول: بعـد أن خلـق (يهـوه/ ءلـوهيم)- أي اليهوديـة- (حـوه)، لـيس لـذاتها إنمـا لـذات الرجـل ولـه، قـام بتحميـل النـساء مسؤولية المبادرة لتحديها لهـا، أي تحـدي الـسلطة الدينيـة والزمنيـة الناشـئة

حديثا. فصادرت منها مصادر الثروة: الإرادة والحقوق والقوة (مسؤولية المبادرة)، وحكمت عليها حكما معاكسًا تمامًا، يضمن للرجال إعادة إنتاج أسباب الخلق: الانقياد والعبودية له. وفي مرحلة لاحقة كرّسها جزءًا من ممتلكاته، كما بدا واضحا في الوصايا العشر، ويحق للرجل بيعها أيضا. كذلك تم «تطوير» العقيدة الخاصة بالمرأة، فحملها مسؤولية الخطيئة الأولى[4]. وهذا عمليا، هو قاعدة اللاهوت والفقه (العقيدة والشريعة) الخاصة بمكانة النساء في المجتمع والحياة العامة، وعلاقة الرجال بهم في اليهودية، كما سنرى.

[4] لمزيد من التفاصيل عن الخطيئة الأولى باليهودية، يمكن مراجعة: أميمة بنت أحمد بن شاهين الجلاهمة- الخطيئة الأولى بين اليهودية والمسيحية والإسلام/ دراسة مقارنة- (ص 21- 105)،

2
المسيحية
صوتان مركزيان ومكانة خاصة لمريم العذراء

«مَنْ كَانَ مِنْكُمْ بِلاَ خَطِيَّةٍ فَلْيَرْمِهَا أَوَّلاً بِحَجَرٍ» (يوحنا 8: 7).

«مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَأَنَّمَا بِإِنْسَانٍ وَاحِدٍ
دَخَلَتِ الْخَطِيَّةُ إِلَى الْعَالَمِ وَبِالْخَطِيَّةِ الْمَوْتُ
وَهَكَذَا اجْتَازَ الْمَوْتُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ إِذْ أَخْطَأَ الْجَمِيعُ» (رومية 5: 1).

في هذا القسم من مداخلتنا، سنعرض لأهميّة وجود أربع نساء، لَسْنَ من نخبة المجتمع، في نسل يسوع المسيح. ومواقف كل من مؤسسي المسيحية الأولى، وأقصد يسوع المسيح، الذي تم صلبه ومغادرته ميدان الأحداث، دون أن يتمكن من إنجاز جميع مبادئ الدين الجديد الذي جاء به، ودون أن يضع منهجا مبلورا لفهمه، وشاؤول الطرسوسي، الذي اعتنق الدين الجديد، واستبدال اسمه القديم (شاؤول) باسم جديد هو (بولس)، وأصبح مشهورا به. فبولس هو أكثر وأهم من أثّر في تحول الدين الجديد إلى مؤسسة ولاهوت جديدين، يختلفان اختلافا جوهريا حول موضوع بحثنا في هذا القسم: مكانة النساء في العقيدة المسيحية، وعمّا جاء به ربّه/ kyrius وسيده، يسوع المسيح.

ينحدر كل من يسوع المسيح وبولس الرسول من اليهودية- نؤكد: بحسب العهد الجديد. فقد ولد الأول لفتاة يهودية من غير زواج.. ونشأ وترعرع في ظروف ترفضه وترفض أمه[5]، هذا في المستوى الشخصي. أما في المستوى العام، فقد عاش وترعرع في بيئة يهودية تعتبر الرجال أسيادا والنساء إماءً، وتؤيد الزواج الضرائري (تعدد الزوجات) والعمل بالتجارة والربا وتكره الآخرين. لذا فإنه، وكما يقول هادي العلوي بحقّ أن اليسوعية (المسيحية الأولى) جاءت ثورة على اليهودية (العلوي؛ 1996: 41- 68). أما شاؤول الطرسوسي فقد نشأ في أسرة يهودية متدينة، وكان مريدا للرابي جَملئيل، وكان متشددا جدا، ويذكر أنه كان يضطهد أتباع يسوع (غلاطية 1: 12- 16 و1 تيموثاوس 1: 12- 16 وأعمال الرسل 7: 58- 60 و8: 1-3 و22: 4- 5). وكان تلميذا للرابي جملئيل (أعمال الرسل 22: 3). وأراد الزواج من ابنته فرفض.. واعتنق المسيحية[6]. ويعتبره العلوي «مؤسس الديانة المسيحية ومنشئ الكنيسة». وكانت تعاليمه مجابهة ومناقضة لما جاء به معلمه، فهو الذي جعل الكنيسة محور النشاط الديني، وأدخل عقيدة الثالوث للمسيحية، واعترف بقابلية الأغنياء للإيمان إذا ما تبرعوا بسخاء، وكرّس العبودية وحرّم العصيان على السلطة والعائلية الصارمة (هناك: 53- 54). وانطلاقا من هذه الخلفية سوف نستعرض فكر وموقف كل منهما تجاه المرأة والنساء.

---

[5] عندما كانت حاملا به نزحت من الناصرة إلى بيت لحم وبعد ولادته هاجرت إلى مصر، طلباً لسلامتها وسلامة المولود وعندما بلغ سن التثبيت، تم تثبيته في الهيكل في أورشليم وكان يعلم أتباعه العهد الجديد في المعبد (السيناجوج) في الناصرة.

[6] للمزيد عن حياة بولس وأسباب اعتناقه المسيحية، يمكن مراجعة: عماد الدين عبد الله طه الشنطي- موقف بولس من تعاليم المسيح عليه السلام- ص 69- 116.

1.2- أربع نساء في نسب يسوع

يذكر العهد الجديد أربع نساء في نسب يسوع المسيح «الملوكي»، عدا أمه. يقول: «كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن دَوِد [..]، من ثَمَر [..] رَحَب/ رَحاب وبُعَز ولد عوبيد من روث وعوبيد ولد يشي ويشي ولد دود الملك ودود الملك ولد شلُمُه من التي لأُوريه [بَتْشِبَع] ويعقب ولد يوسف رجل مريم التي ولد منها يسوع الذي يدعى المسيح» (متى 1:1- 17). والنساء المذكورات، حامت حولهن شبهات أخلاقية: فـ(ثمر)، هي ابنة (دود)، والأخت غير الشقيقة لـ(عمنون)، بن (دود) الذي دبّر عملية اغتصابها.. ومع ذلك يقتصّ (دود) منه!! و(رحب/ رحاب)، هي «بغي يرحو»، التي ساعدت جاسوسا (يشوع بن نون)، وكانا قد جاءا لاستطلاع أحوال (يرحو) قبل احتلالها.. و(روث)، هي كنّة (نعمي)، وأرملة أحد أبنائها. وهي (موءبية) الأصل، فضلت التنازل عن هويتها وأهلها، ورافقت حماتها بعودتها إلى (بيت لحم يهوده).. وزوجة (ءوريه الحثي/ بتشيبع)، وهي التي دبّر (دود) حادثة مقتل زوجها وتزوج منها! يحملها الأدب اليهومسيحي المسؤولية لأنها لم تقاوم «غزل» (دود). فقد ذكر العهد الجديد هؤلاء النسوة اللواتي تحوم حول بعضهن شبهات أخلاقية، كما تؤكد العقيدة المسيحية، من أجل التأكيد على حقّ هؤلاء النساء، مهما كانت مكانتهن، في نسب يسوع. أي حقّ النساء كافة دون تمييز بالخلاص مثلهن مثل الرجال.

ونورد قصص كل واحدة منهن كما جاءت في «التناخ»، الأمر لا يلزمنا الأخذ بها أبداً. إلا أن ظهورهن في سلسلة النسب «الملوكي» يدل على حصّة النساء اللواتي دارت حولهن شبهات تعاقب عليها الشريعة اليهودية، ويدلّ أيضاً على نصيبهن في نسب الـ«المخلص». فنسب «المخلص»، هو من النساء المغضوب عليهن باليهودية، وعليه، سنرى محاولات يسوع الحثيثة لإعادة الاعتبار لهن.

2.2- يسوع : النساء مساويات للرجال

لا ترد على لسانه كلمة واحدة عن قبوله أو رفضه قصة الخليقة، لأن شغله الشاغل كان اجتماعيا. أي تحدي المكوّن الاجتماعي الطبقي الظالم للفقراء والمُعْـدَمين والعبيد والنساء. وفي الحقيقة لا نسمع تصريحات فكرية كثيرة على لسانه. وكل ما نقرؤه في الأناجيل هو نوادر وأحداث ميدانية، عبّر عن أفكاره بواسطتها. وفي هذا المقام سنعرض بعض الأحداث والنوادر التي تلعب النساء دورا فيها، وموقف يسوع منها.

الأولى- تحريم الزنا[7] والتحرش الجنسي- قال: «قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِلْقُدَمَاءِ: لاَ تَزْنِ[8]. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى امْرَأَةٍ لِيَشْتَهِيَهَا، فَقَدْ زَنَى بِهَا فِي قَلْبِهِ فَإِنْ كَانَتْ عَيْنُكَ الْيُمْنَى تُعْثِرُكَ فَاقْلَعْهَا وَأَلْقِهَا عَنْكَ، لأَنَّهُ خَيْرٌ لَكَ أَنْ يَهْلِكَ أَحَدُ أَعْضَائِكَ وَلاَ يُلْقَى جَسَدُكَ كُلُّهُ فِي جَهَنَّمَ وَإِنْ كَانَتْ يَدُكَ الْيُمْنَى تُعْثِرُكَ فَاقْطَعْهَا وَأَلْقِهَا عَنْكَ، لأَنَّهُ خَيْرٌ لَكَ أَنْ يَهْلِكَ أَحَدُ أَعْضَائِكَ وَلاَ يُلْقَى جَسَدُكَ كُلُّهُ فِي جَهَنَّمَ» (متى 5: 27- 30). نراه هنا يوسع دائرة الزنا لتشمل التحرش الذي يبدأ بالنظرة الشهوانية. ومعنى هذا واضح: تحريم التحرش بأبسط مستوياته، وهذا يعني (أيضًا) تحريم امتهان كرامة المرأة، بل احترامها.

---

[7] يذكر سلام خيّاط حقيقة تاريخية مثيرة للغاية عن المؤسسة البابوية والزنا، فيقول: « وفي مدينة البابا الأب كليمانتين الثاني، أراد هو ورجاله الاستفادة القصوى من عمل المومسات، فوضع قانونا فرض فيه على كل مومس تتعرض لعقوبة قانونية، أن تترك نصف أموالها للكنيسة والجمعيات الخيرية والدينية، سواء بعد الممات أو قبله، وللبابا بالطبع جزء لا بأس به، من هذه الحصيلة، ومن تعاظم شأن البغايا في تلك الفترة أنهن كن يعقدن لقاءاتهن [غير الجنسية] في الكنيسة وصار يطلق عليهن 'عصافير الجنّة'» (خياط، 1992: 74).

[8] يفهم المسيحيون الوصية «לא תנאף/ لو تنآف» الواردة في (خروج 20: 14)، على أنها منع قطعي للزنا، ويترجمونها: لا تزنِ إلا أن الأمر، ليس كذلك كما سنبيّن لاحقًا.

الثانية- تحريم الطلاق- قال: «وَقِيلَ: مَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ فَلْيُعْطِهَا كِتَابَ طَلاَقٍ وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ إِلاَّ لِعِلَّةِ الزِّنَا يَجْعَلُهَا تَزْنِي، وَمَنْ يَتَزَوَّجُ مُطَلَّقَةً فَإِنَّهُ يَزْنِي» (متى 5: 31- 32). لم يكن هذا القول أو الوصيّة، انتقاصًا من حقّ الرجال في الطلاق، والنساء في التطليق، أو إبقاء المرأة في بيت رجل لا يطيقها ولا تطيقه، بل جاء لكثرة حالات إطلاق التعسفية في الحياة اليهودية. فالتلمود، بقسميه البابلي والأورشليمي، يحدثنا عن مئات حالات الطلاق التعسفية التي كانت تمتهن كرامة المرأة وتلقيها في ميادين تحطّ من مكانتها وقدرها، لذا جاء هذا التعليم تجديا لهذا التعسف بالأساس. وقدّ تنبه يسوع إلى هذه الحالة، وبدلا من أن تبقى حالة اجتماعية لها إطارها الشرعي، فإنه بادر إلى تجاوزها بوصية أخلاقية، وحمّل مسؤولية الطلاق (التعسفي) للرجال؛ مرة لأنهم طلقوا نساءهم، ومرة لأنهم تزوجوا نساء مطلقات. وكل ما أراده يسوع من هذه الوصية هو حرمان الرجال من استخدام الامتياز الذي منحتهم إياه الشريعة اليهودية (طلاق النساء)، الذي عادة ما استخدموه تعسفا. فاعتبر الرجل الذي يطلق أو يتزوج مطلقة زانيًا. والملاحظ هنا أنه لم يلق أية مسؤولية على النساء، لأنه كان عليما بالظلم الذي تتعرض إليه في مؤسسة الزواج اليهودية.

الثالثة- شفاء نساء مريضات- جاء: «وَلَمَّا جَاءَ يَسُوعُ إِلَى بَيْتِ بُطْرُسَ، رَأَى حَمَاتَهُ مَطْرُوحَةً وَمَحْمُومَةً، فَلَمَسَ يَدَهَا فَتَرَكَتْهَا الْحُمَّى، فَقَامَتْ وَخَدَمَتْهُمْ وَلَمَّا صَارَ الْمَسَاءُ قَدَّمُوا إِلَيْهِ مَجَانِينَ كَثِيرِينَ، فَأَخْرَجَ الأَرْوَاحَ بِكَلِمَةٍ، وَجَمِيعَ الْمَرْضَى شَفَاهُمْ، لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ بِيشعيهو النَّبِيِّ الْقَائِلِ: «هُوَ أَخَذَ أَسْقَامَنَا وَحَمَلَ أَمْرَاضَنَا» (متى 8: 14- 17). وأيضا: «بينمَا هُوَ يُكَلِّمُهُمْ بِهذَا إِذَا رَئِيسٌ قَدْ جَاءَ فَسَجَدَ لَهُ قَائِلاً: «إِنَّ ابْنَتِي الآنَ مَاتَتْ، لكِنْ تَعَالَ وَضَعْ يَدَكَ عَلَيْهَا فَتَحْيَا» فَقَامَ يَسُوعُ وَتَبِعَهُ هُوَ

وَتَلاَمِيذُهُ وَإِذَا امْرَأَةٌ نَازِفَةُ دَمٍ مُنْذُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً قَدْ جَاءَتْ مِنْ وَرَائِهِ وَمَسَّتْ هُدْبَ ثَوْبِهِ، لأَنَّهَا قَالَتْ فِي نَفْسِهَا: «إِنْ مَسَسْتُ ثَوْبَهُ فَقَطْ شُفِيتُ» فَالْتَفَتَ يَسُوعُ وَأَبْصَرَهَا، فَقَالَ: «ثِقِي يَا ابْنَةُ، إِيمَانُكِ قَدْ شَفَاكِ» فَشُفِيَتِ الْمَرْأَةُ مِنْ تِلْكَ السَّاعَةِ وَلَمَّا جَاءَ يَسُوعُ إِلَى بَيْتِ الرَّئِيسِ، وَنَظَرَ الْمُزَمِّرِينَ وَالْجَمْعَ يَضِجُّونَ، قَالَ لَهُمْ: «تَنَحَّوْا، فَإِنَّ الصَّبِيَّةَ لَمْ تَمُتْ لَكِنَّهَا نَائِمَةٌ» فَضَحِكُوا عَلَيْهِ فَلَمَّا أُخْرِجَ الْجَمْعُ دَخَلَ وَأَمْسَكَ بِيَدِهَا، فَقَامَتِ الصَّبِيَّةُ فَخَرَجَ ذَلِكَ الْخَبَرُ إِلَى تِلْكَ الأَرْضِ كُلِّهَا. (متى 9: 8- 25).

وجاء في أنجيل لوقا أنه أشفى حماة سمعان وآخرين (لوقا 1: 29- 34). وكان شفاء حماة بطرس مباشرة بعد شفاء الأبرص وكان إحياء الفتاة الميتة قبل إحياء الرجل الميت في نين (يوحنا 11: 44). سواء قبلنا النصّ بحرفيته أو مجازيته، فإن المعنى واحد: للجميع، الرجال والنساء، خاصة المرضى نفس المكانة في عقيدتي، ولا فضل لرجل على امرأة، أو سليم على مريض.

الرابعة- فلسا الأرملة- وجاء أيضاً: «وَجَلَسَ يَسُوعُ تُجَاهَ الْخِزَانَةِ، وَنَظَرَ كَيْفَ يُلْقِي الْجَمْعُ نُحَاساً فِي الْخِزَانَةِ وَكَانَ أَغْنِيَاءُ كَثِيرُونَ يُلْقُونَ كَثِيراً. فَجَاءَتْ أَرْمَلَةٌ فَقِيرَةٌ وَأَلْقَتْ فَلْسَيْنِ، قِيمَتُهُمَا رُبْعٌ فَدَعَا تَلاَمِيذَهُ وَقَالَ لَهُمْ: «الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ هذِهِ الأَرْمَلَةَ الْفَقِيرَةَ قَدْ أَلْقَتْ أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ الَّذِينَ أَلْقَوْا فِي الْخِزَانَةِ، لأَنَّ الْجَمِيعَ مِنْ فَضْلَتِهِمْ أَلْقَوْا. وَأَمَّا هذِهِ فَمِنْ إِعْوَازِهَا أَلْقَتْ كُلَّ مَا عِنْدَهَا، كُلَّ مَعِيشَتِهَا». (مرقس 12: 41- 44). واضح أنه يفضل المرأة الإنسان لإيمانها وتقواها، وليس لمكانتها الاجتماعية. وقد جاءت مقارنة المرأة الفقيرة بالرجال الأغنياء، تأكيدا على أن جوهر عقيدته، هو الإيمان والتقوى المناقضتان للغنى والأغنياء.

الخامسة- يسوع يظهر لمريم المجدلية- وجاء أيضا: «وَبَعْدَمَا قَامَ بَاكِراً فِي أَوَّلِ الأُسْبُوعِ ظَهَرَ أَوَّلاً لِمَرْيَمَ الْمَجْدَلِيَّةِ، الَّتِي كَانَ قَدْ أَخْرَجَ

مِنْهَا سَبْعَةَ شَيَاطِينَ فَذَهَبَتْ هَذِهِ وَأَخْبَرَتِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ وَهُمْ يَنُوحُونَ وَيَبْكُونَ فَلَمَّا سَمِعَ أُولَئِكَ أَنَّهُ حَيٌّ، وَقَدْ نَظَرَتْهُ، لَمْ يُصَدِّقُوا» (مرقس 16: 9- 11). بعد صلبه ودفنه قام يسوع وظهر لامرأة أولا، وليس لأحد من تلاميذه. والمعنى واضح: للنساء أيضاً مكانة مفضلة في العقيدة المسيحية. نذكر أن مريم المجدلية التي كانت «تحفّ شعر النساء» (التلمود البابلي، مَسخت شبت 12، ورقة ق. د، صفحة ب)، كانت إحدى النساء الأثيرات إلى قلب يسوع، وهي إحدى النساء اللواتي موّلن حملته الاجتماعية الدعوية.

السادسة- يغفر لامرأة خاطئة- وجاء أيضاً: «وَسَأَلَهُ وَاحِدٌ مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ أَنْ يَأْكُلَ مَعَهُ، فَدَخَلَ بَيْتَ الْفَرِّيسِيِّ وَاتَّكَأَ. وَإِذَا امْرَأَةٌ فِي الْمَدِينَةِ كَانَتْ خَاطِئَةً، إِذْ عَلِمَتْ أَنَّهُ مُتَّكِئٌ فِي بَيْتِ الْفَرِّيسِيِّ، جَاءَتْ بِقَارُورَةِ طِيبٍ وَوَقَفَتْ عِنْدَ قَدَمَيْهِ مِنْ وَرَائِهِ بَاكِيَةً، وَابْتَدَأَتْ تَبُلُّ قَدَمَيْهِ بِالدُّمُوعِ، وَكَانَتْ تَمْسَحُهُمَا بِشَعْرِ رَأْسِهَا، وَتُقَبِّلُ قَدَمَيْهِ وَتَدْهَنُهُمَا بِالطِّيبِ فَلَمَّا رَأَى الْفَرِّيسِيُّ الَّذِي دَعَاهُ ذَلِكَ، تَكَلَّمَ فِي نَفْسِهِ قَائِلاً: «لَوْ كَانَ هَذَا نَبِيّاً، لَعَلِمَ مَنْ هَذِهِ المرأة الَّتِي تَلْمِسُهُ وَمَا هِيَ! إِنَّهَا خَاطِئَةٌ» أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ: «يَا سِمْعَانُ، عِنْدِي شَيْءٌ أَقُولُهُ لَكَ» فَقَالَ: «قُلْ، يَا مُعَلِّمُ» «كَانَ لِمُدَايِنٍ مَدْيُونَانِ عَلَى الْوَاحِدِ خَمْسُمِئَةِ دِينَارٍ وَعَلَى الآخَرِ خَمْسُونَ وَإِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمَا مَا يُوفِيَانِ سَامَحَهُمَا جَمِيعاً. فَقُلْ: أَيُّهُمَا يَكُونُ أَكْثَرَ حُبّاً لَهُ؟» فَأَجَابَ سِمْعَانُ وَقَالَ: «أَظُنُّ الَّذِي سَامَحَهُ بِالأَكْثَرِ» فَقَالَ لَهُ: «بِالصَّوَابِ حَكَمْتَ» ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى الْمَرْأَةِ وَقَالَ لِسِمْعَانَ: «أَتَنْظُرُ هَذِهِ الْمَرْأَةَ؟ إِنِّي دَخَلْتُ بَيْتَكَ، وَمَاءً لأَجْلِ رِجْلَيَّ لَمْ تُعْطِ وَأَمَّا هِيَ فَقَدْ غَسَلَتْ رِجْلَيَّ بِالدُّمُوعِ وَمَسَحَتْهُمَا بِشَعْرِ رَأْسِهَا. قُبْلَةً لَمْ تُقَبِّلْنِي، وَأَمَّا هِيَ فَمُنْذُ دَخَلْتُ لَمْ تَكُفَّ عَنْ تَقْبِيلِ رِجْلَيَّ بِزَيْتٍ لَمْ تَدْهُنْ رَأْسِي، وَأَمَّا هِيَ فَقَدْ دَهَنَتْ بِالطِّيبِ رِجْلَيَّ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَقُولُ لَكَ: قَدْ غُفِرَتْ خَطَايَاهَا الْكَثِيرَةُ، لأَنَّهَا أَحَبَّتْ كَثِيراً. وَالَّذِي يُغْفَرُ لَهُ قَلِيلٌ يُحِبُّ قَلِيلاً» ثُمَّ قَالَ

لَهَا: «مَغْفُورَةٌ لَك خَطَايَاك» فَابْتَدَأَ الْمُتَّكِئُونَ مَعَهُ يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ: «مَنْ هَذَا الَّذِي يَغْفِرُ خَطَايَا أَيْضاً؟» فَقَالَ لِلْمَرْأَةِ: «إِيمَانُك قَدْ خَلَّصَك؛ اذْهَبِي بِسَلاَمٍ» (لوقا 7: 36- 50). ما يريد يسوع قوله في هذه الحادثة، هو أننا يجب أن لا نقبل حكم الناموس (الشريعة اليهودية) على النساء الخاطئات، ولا يجب عقابهن، ولا تفضيل الرجال مهما بلغوا من الغنى، بل يجب أن تُتاح للنساء إمكانية التوبة والعودة إلى جادة الصواب.

السابعة- قبوله السامرية الخاطئة- وجاء أيضًا: «فَأَتَى إِلَى مَدِينَةٍ مِنَ السَّامِرَةِ يُقَالُ لَهَا سُوخَارُ، بِقُرْبِ الضَّيْعَةِ الَّتِي وَهَبَهَا يَعْقُوبُ لِيُوسُفَ ابْنِه. وَكَانَتْ هُنَاكَ بِئْرُ يَعْقُوبَ. فَإِذْ كَانَ يَسُوعُ قَدْ تَعِبَ مِنَ السَّفَرِ، جَلَسَ هَكَذَا عَلَى الْبِئْرِ، وَكَانَ نَحْوَ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ. فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ مِنَ السَّامِرَةِ لِتَسْتَقِيَ مَاءً، فَقَالَ لَهَا يَسُوعُ: «أَعْطِينِي لأَشْرَبَ» لأَنَّ تلاَمِيذَهُ كَانُوا قَدْ مَضَوْا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيَبْتَاعُوا طَعَاماً. فَقَالَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ السَّامِرِيَّةُ: «كَيْفَ تَطْلُبُ مِنِّي لِتَشْرَبَ، وَأَنْتَ يَهُودِيٌّ وَأَنَا امْرَأَةٌ سَامِرِيَّةٌ؟» لأَنَّ الْيَهُودَ لاَ يُعَامِلُونَ السَّامِرِيِّينَ أجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهَا: «لَوْ كُنْتِ تَعْلَمِينَ عَطِيَّةَ اللَّهِ، وَمَنْ هُوَ الَّذِي يَقُولُ لَكِ أَعْطِينِي لأَشْرَبَ لَطَلَبْتِ أَنْتِ مِنْهُ فَأَعْطَاكِ مَاءً حَيّاً» قَالَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ: «يَا سَيِّدُ، لاَ دَلْوَ لَكَ وَالْبِئْرُ عَمِيقَةٌ فَمِنْ أَيْنَ لَكَ الْمَاءُ الْحَيُّ؟ أَلَعَلَّكَ أَعْظَمُ مِنْ أَبِينَا يَعْقُوبَ، الَّذِي أَعْطَانَا الْبِئْرَ، وَشَرِبَ مِنْهَا هُوَ وَبَنُوهُ وَمَوَاشِيهِ؟» أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهَا: «كُلُّ مَنْ يَشْرَبُ مِنْ هَذَا الْمَاءِ يَعْطَشُ أَيْضاً. وَلَكِنْ مَنْ يَشْرَبُ مِنَ الْمَاءِ الَّذِي أُعْطِيهِ أَنَا فَلَنْ يَعْطَشَ إِلَى الأَبَدِ، بَلِ الْمَاءُ الَّذِي أُعْطِيهِ يَصِيرُ فِيهِ يَنْبُوعَ مَاءٍ يَنْبَعُ إِلَى حَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ» قَالَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ: «يَا سَيِّدُ أَعْطِنِي هَذَا الْمَاءَ، لِكَيْ لاَ أَعْطَشَ وَلاَ آتِيَ إِلَى هُنَا لأَسْتَقِيَ» قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «اذْهَبِي وَادْعِي زَوْجَكِ وَتَعَالَيْ إِلَى هَهُنَا» أَجَابَتِ الْمَرْأَةُ وَقَالَتْ: «لَيْسَ لِي زَوْجٌ» قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «حَسَناً قُلْتِ: لَيْسَ لِي زَوْجٌ، لأَنَّهُ كَانَ لَكِ خَمْسَةُ أَزْوَاجٍ، وَالَّذِي لَكِ الآنَ لَيْسَ هُوَ

زَوْجَكِ هَذَا قُلْتِ بِالصِّدْقِ» قَالَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ: «يَا سَيِّدُ، أَرَى أَنَّكَ نَبِيٌّ! آبَاؤُنَا سَجَدُوا فِي هَذَا الْجَبَلِ، وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ إِنَّ فِي أُورُشَلِيمَ الْمَوْضِعَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُسْجَدَ فِيهِ» قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «يَا امْرَأَةُ، صَدِّقِينِي أَنَّهُ تَأْتِي سَاعَةٌ، لاَ فِي هَذَا الْجَبَلِ، وَلاَ فِي أُورُشَلِيمَ تَسْجُدُونَ لِلآبِ أَنْتُمْ تَسْجُدُونَ لِمَا لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ، أَمَّا نَحْنُ فَنَسْجُدُ لِمَا نَعْلَمُ, لأَنَّ الْخَلاَصَ هُوَ مِنَ الْيَهُودِ. وَلَكِنْ تَأْتِي سَاعَةٌ، وَهِيَ الآنَ، حِينَ السَّاجِدُونَ الْحَقِيقِيُّونَ يَسْجُدُونَ لِلآبِ بِالرُّوحِ وَالْحَقِّ، لأَنَّ الآبَ طَالِبٌ مِثْلَ هَؤُلاَءِ السَّاجِدِينَ لَهُ. اَللَّهُ رُوحٌ. وَالَّذِينَ يَسْجُدُونَ لَهُ فَبِالرُّوحِ وَالْحَقِّ يَنْبَغِي أَنْ يَسْجُدُوا» قَالَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ: «أَنَا أَعْلَمُ أَنَّ مَسِيَّا، الَّذِي يُقَالُ لَهُ الْمَسِيحُ، يَأْتِي فَمَتَى جَاءَ ذَاكَ يُخْبِرُنَا بِكُلِّ شَيْءٍ» قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «أَنَا الَّذِي أُكَلِّمُكِ هُوَ» وَعِنْدَ ذَلِكَ جَاءَ تَلاَمِيذُهُ، وَكَانُوا يَتَعَجَّبُونَ أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ مَعَ امْرَأَةٍ وَلَكِنْ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ: «مَاذَا تَطْلُبُ؟» أَوْ «لِمَاذَا تَتَكَلَّمُ مَعَهَا؟» فَتَرَكَتِ الْمَرْأَةُ جَرَّتَهَا وَمَضَتْ إِلَى الْمَدِينَةِ وَقَالَتْ لِلنَّاسِ: «هَلُمُّوا انْظُرُوا إِنْسَاناً قَالَ لِي كُلَّ مَا فَعَلْتُ أَلَعَلَّ هَذَا هُوَ الْمَسِيحُ؟» فَخَرَجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ وَأَتَوْا إِلَيْهِ وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ سَأَلَهُ تَلاَمِيذُهُ قَائِلِينَ: «يَا مُعَلِّمُ، كُلْ» فَقَالَ لَهُمْ: «أَنَا لِي طَعَامٌ لآكُلَ لَسْتُمْ تَعْرِفُونَهُ أَنْتُمْ» فَقَالَ التَّلاَمِيذُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «أَلَعَلَّ أَحَداً أَتَاهُ بِشَيْءٍ لِيَأْكُلَ؟» قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «طَعَامِي أَنْ أَعْمَلَ مَشِيئَةَ الَّذِي أَرْسَلَنِي وَأُتَمِّمَ عَمَلَهُ أَمَا تَقُولُونَ: إِنَّهُ يَكُونُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ ثُمَّ يَأْتِي الْحَصَادُ؟ هَا أَنَا أَقُولُ لَكُمْ: ارْفَعُوا أَعْيُنَكُمْ وَانْظُرُوا الْحُقُولَ إِنَّهَا قَدِ ابْيَضَّتْ لِلْحَصَادِ. وَالْحَاصِدُ يَأْخُذُ أُجْرَةً وَيَجْمَعُ ثَمَراً لِلْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ، لِكَيْ يَفْرَحَ الزَّارِعُ وَالْحَاصِدُ مَعاً. لأَنَّهُ فِي هَذَا يَصْدُقُ الْقَوْلُ: إِنَّ وَاحِداً يَزْرَعُ وَآخَرَ يَحْصُدُ. أَنَا أَرْسَلْتُكُمْ لِتَحْصُدُوا مَا لَمْ تَتْعَبُوا فِيهِ آخَرُونَ تَعِبُوا وَأَنْتُمْ قَدْ دَخَلْتُمْ عَلَى تَعَبِهِمْ» (يوحنا 4: 5 - 38). تعتبر قصة يسوع مع المرأة السامرية من أهم القصص وأشدها بلاغة وعبرة. سواء قبلنا بحرفية النصّ عن أنه كان لهذه

المرأة خمسة أزواج، أي كانت من متزوجة خمسة رجال، أو التفسير التأويلي الذي يقول أنها كانت من جماعة تعبد خمسة آلهة، فإن يسوع لم يتخذ موقفا عمليا سلبيا منها. بل قبلها كما هي، وطالبها بأن لا تخطئ مرة أخرى. بينما لم يقبل منطق جميع الرجال الذين استغربوا منه لأنه كلمها وطلب أن يشرب منها. بهذا فضل إعطاءها إمكانية الخلاص على الإدانة. ويعتبر غفرانه لها وقبولها كما هي، تحولا كبيرا عمّا جاء في باليهودية ليس تجاه النساء عموما فحسب، بل النساء الغريبات والخاطئات أيضا. فاليهودية ترفض هذا النوع من النساء، فقصة (رحب/ رحاب) الغريبة (الكنعانية) التي استقبلت في نزلها جاسوسا (يشوع بن نون) من أجل احتلال مدينة (يريحو)، حيث تحولت إلى رجل عند المتصوفين اليهود في بغداد في القرن التاسع عشر.. وانقطاع نسل (يفتح الجلعدي) لأنه أمه ضرة غير يهودية (أشقر؛ 2004: 62- 67 وأشقر؛ 2005: 44- 47). هذا عمليا من أكبر التحديات التي قام يسوع بها تجاه العقيدة اليهودية، التي ترفض الأغيار والنساء، فكرّس جزءا هاما من جهوده وعقيدته لاعتبار النساء ذواتًا مساوية للرجال في المجتمع.

الثامنة- الغفران للمرأة الزانية- فقد جاء: «أَمَّا يَسُوعُ فَمَضَى إِلَى جَبَلِ الزَّيْتُونِ. ثُمَّ حَضَرَ أَيْضاً إِلَى الْهَيْكَلِ فِي الصُّبْحِ، وَجَاءَ إِلَيْهِ جَمِيعُ الشَّعْبِ فَجَلَسَ يُعَلِّمُهُمْ. وَقَدَّمَ إِلَيْهِ الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ امْرَأَةً أُمْسِكَتْ فِي زِناً. وَلَمَّا أَقَامُوهَا فِي الْوَسَطِ قَالُوا لَهُ: «يَا مُعَلِّمُ، هَذِهِ الْمَرْأَةُ أُمْسِكَتْ وَهِيَ تَزْنِي فِي ذَاتِ الْفِعْلِ، وَمُوسَى فِي النَّامُوسِ أَوْصَانَا أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ تُرْجَمُ. فَمَاذَا تَقُولُ أَنْتَ؟» قَالُوا هَذَا لِيُجَرِّبُوهُ، لِكَيْ يَكُونَ لَهُمْ مَا يَشْتَكُونَ بِهِ عَلَيْهِ. وَأَمَّا يَسُوعُ فَانْحَنَى إِلَى أَسْفَلُ وَكَانَ يَكْتُبُ بِإِصْبِعِهِ عَلَى الأَرْضِ. وَلَمَّا اسْتَمَرُّوا يَسْأَلُونَهُ انْتَصَبَ وَقَالَ لَهُمْ: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ بِلاَ خَطِيَّةٍ فَلْيَرْمِهَا أَوَّلاً بِحَجَرٍ!» ثُمَّ انْحَنَى أَيْضاً إِلَى أَسْفَلُ وَكَانَ يَكْتُبُ عَلَى

الأَرْضِ وَأَمَّا هُمْ فَلَمَّا سَمِعُوا وَكَانَتْ ضَمَائِرُهُمْ تُبَكِّتُهُمْ، خَرَجُوا وَاحِداً فَوَاحِداً، مُبْتَدِئِينَ مِنَ الشُّيُوخِ إِلَى الآخِرِينَ وَبَقِيَ يَسُوعُ وَحْدَهُ وَالْمَرْأَةُ وَاقِفَةٌ فِي الْوَسَطِ فَلَمَّا انْتَصَبَ يَسُوعُ وَلَمْ يَنْظُرْ أَحَداً سِوَى الْمَرْأَةِ، قَالَ لَهَا: «يَا امْرَأَةُ، أَيْنَ هُمْ أُولَئِكَ الْمُشْتَكُونَ عَلَيْكِ؟ أَمَا دَانَكِ أَحَدٌ؟» فَقَالَتْ: «لاَ أَحَدَ، يَا سَيِّدُ!». فَقَالَ لَهَا يَسُوعُ: «وَلاَ أَنَا أَدِينُكِ اذْهَبِي وَلاَ تُخْطِئِي أَيْضاً» (يوحنا 8: 1- 11). في هذه الحادثة يواصل يسوع حماية النساء من وطأة الناموس (الشريعة اليهودية)، برفضه رجم الزانية، ليس هذا فحسب، بل يساوي الجميع: الرجال والنساء، في ارتكاب الخطايا، كما يقول: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ بِلاَ خَطِيَّةٍ فَلْيَرْمِهَا أَوَّلاً بِحَجَرٍ». ثم يضيف أنه لا يحقّ لأحد أن يدين آخر، لا امرأة ولا رجلاً، كما يقول: «مَا دَانَكِ أَحَدٌ؟» فَقَالَتْ: «لاَ أَحَدَ، يَا سَيِّدُ!». فَقَالَ لَهَا يَسُوعُ: «وَلاَ أَنَا أَدِينُكِ اذْهَبِي وَلاَ تُخْطِئِي أَيْضاً». هذا التحوّل هام للنساء، ليس في مجال حقهن بالحريّة الجنسية فقط- وإن كانت خطيئة، بل حقهن أيضًا في رفض اتهام الرجال لهنّ زورا بالزنا. فإبطال هذا العقاب، معناه: لم يعد مقبولا في عقيدتي الجديدة اتهام الرجال للنساء بالزنا.

2. 3- بولس: المرأة مسؤولة عن الخطيئة الأولى

بعد أن وقفنا على عقيدة المسيح تجاه النساء ومساواتهن بالرجال، سنقف الآن على عقيدة الرسول بولس. المسيح وبولس نشآ وترعرعا وتثقفا في بيئة يهودية؛ المسيح تحداها وقاومها مقاومة جذرية، أما بولس فقد قام بتكريس مسؤولية المرأة (حوه) عن الخطيئة الأولى وطورها أيضا.

من الواضح أن بولس كان عالما بقصّة الخلق «التناخية» وفقهها وعقيدتها، فقد كان يهوديا وتتلمذ على الرابي (جملئيل) في القرن الأول. ومن الواضح أيضًا أنه كان عالما جدا بتدرج العقاب الذي فرضه «التناخ»

على المرأة/ (حوه) التي أغوت زوجها الرجل/ (عدم). لذا جاء حديثه عن مسؤولية المرأة/ (حوه) في استدخال الخطيئة الأولى إلى الجنس البشري مبلورا وواعيا جدا. في رسالته إلى المسيحيين الأوائل في رومية، بدأ بولس بتحديد مكانة النساء في المسيحية حسب فهمه هو، مستندا إلى «التناخ» والتراث اليهودي. فيقول: «مِنْ أَجْلِ ذلِكَ كَأَنَّمَا بِإِنْسَانٍ وَاحِدٍ دَخَلَتِ الْخَطِيَّةُ إِلَى الْعَالَمِ وَبِالْخَطِيَّةِ الْمَوْتُ وَهكَذَا اجْتَازَ الْمَوْتُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ إِذْ أَخْطَأَ الْجَمِيعُ فَإِنَّهُ حَتَّى النَّامُوسِ كَانَتِ الْخَطِيَّةُ فِي الْعَالَمِ عَلَى أَنَّ الْخَطِيَّةَ لاَ تُحْسَبُ إِنْ لَمْ يَكُنْ نَامُوسٌ لكِنْ قَدْ مَلَكَ الْمَوْتُ مِنْ آدَمَ إِلَى مُوسَى وَذلِكَ عَلَى الَّذِينَ لَمْ يُخْطِئُوا عَلَى شِبْهِ تَعَدِّي آدَمَ الَّذِي هُوَ مِثَالُ الآتِي وَلكِنْ لَيْسَ كَالْخَطِيَّةِ هكَذَا أَيْضاً الْهِبَةُ لأَنَّهُ إِنْ كَانَ بِخَطِيَّةِ وَاحِدٍ مَاتَ الْكَثِيرُونَ فَبِالأَوْلَى كَثِيراً نِعْمَةُ اللهِ وَالْعَطِيَّةُ بِالنِّعْمَةِ الَّتِي بِالإِنْسَانِ الْوَاحِدِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ قَدِ ازْدَادَتْ لِلْكَثِيرِينَ! وَلَيْسَ كَمَا بِوَاحِدٍ قَدْ أَخْطَأَ هكَذَا الْعَطِيَّةُ لأَنَّ الْحُكْمَ مِنْ وَاحِدٍ لِلدَّيْنُونَةِ وَأَمَّا الْهِبَةُ فَمِنْ جَرَّى خَطَايَا كَثِيرَةٍ لِلتَّبْرِيرِ. لأَنَّهُ إِنْ كَانَ بِخَطِيَّةِ الْوَاحِدِ قَدْ مَلَكَ الْمَوْتُ بِالْوَاحِدِ فَبِالأَوْلَى كَثِيراً الَّذِينَ يَنَالُونَ فَيْضَ النِّعْمَةِ وَعَطِيَّةَ الْبِرِّ سَيَمْلِكُونَ فِي الْحَيَاةِ بِالْوَاحِدِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ. فَإِذاً كَمَا بِخَطِيَّةٍ وَاحِدَةٍ صَارَ الْحُكْمُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ لِلدَّيْنُونَةِ هكَذَا بِبِرٍّ وَاحِدٍ صَارَتِ الْهِبَةُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ لِتَبْرِيرِ الْحَيَاةِ لأَنَّهُ كَمَا بِمَعْصِيَةِ الإِنْسَانِ الْوَاحِدِ- التشديد من عندي/ أ. أ- جُعِلَ الْكَثِيرُونَ خُطَاةً هكَذَا أَيْضاً بِإِطَاعَةِ الْوَاحِدِ سَيُجْعَلُ الْكَثِيرُونَ أَبْرَاراً. وَأَمَّا النَّامُوسُ فَدَخَلَ لِكَيْ تَكْثُرَ الْخَطِيَّةُ وَلكِنْ حَيْثُ كَثُرَتِ الْخَطِيَّةُ ازْدَادَتِ النِّعْمَةُ جِدّاً. حَتَّى كَمَا مَلَكَتِ الْخَطِيَّةُ فِي الْمَوْتِ هكَذَا تَمْلِكُ النِّعْمَةُ بِالْبِرِّ لِلْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ رَبِّنَا (رومية 5: 12- 22). و«الإنسان الواحد»، كما يوضح لنا في رسالته الأولى إلى تموثاوس، فيقول: «لأَنَّ عدَمَ جُبِلَ أَوَّلاً ثُمَّ حَوه، وَآدَمُ لَمْ يُغْوَ لكِنَّ الْمَرْأَةَ

أُغْوِيَتْ فَحَصَلَتْ فِي التَّعَدِّي» (1 تموثاوس 2: 13- 14). والقول والموقف واضحان هنا: الخطيئة دخلت الجنس البشري بفعل معصية المرأة (حوه). نلاحظ أن بولس يضع مسؤولية الخطيئة الأولى ليس على (حوه) المرأة فقط، بل يضعها ضمن ثنائية الشرّ والخير؛ فالمرأة الشريرة يقابلها يسوع الرجل الخير كله. والمثير أيضاً أنه يبرئ (ءدم) الرجل من المسؤولية في عمليه إغواء (حوه) المرأة له، وكأنه مسلوب الإرادة لا قدرة له على تحديد مجرى ومسار أعماله. إن تبرئة الرجل من هذا السياق، ليس صدفة، بل جاء ليحمّل المرأة كامل المسؤولية، ليس عن إغوائها الرجل فحسب، بل عن الذي حصل وسيحصل للإنسانية من عذاب وخطايا، إلى قيام الساعة. ومعنى تحميله المرأة والنساء هذه المسؤولية إعلان واضح وصارخ: لا تنتظروا خيرا من النساء.

واضح أن بولس الذي نشأ في بيئة يهودية، يذهب بعيدا في قضية الخطيئة الأولى، فإنه يتبنى موقف يهوشع بن سيراخ: «مِنَ الْمَرْأَةِ ابتَدَأَت الخَطِيئَة وبسببها نموت نحن أجْمَعُون» (ابن سيراخ؛ 25: 24)، ويخصّه ب(حوه)، بدليل قوله: «وَآدَمُ لَمْ يُغْوَ لَكِنَّ الْمَرْأَةَ أُغْوِيَتْ فَحَصَلَتْ فِي التَّعَدِّي» (1 تيموثاوس 2: 14). وواضح أن بولس هو أول من أدخل عقيدة الخطيئة التي سببتها المرأة- حسب اعتقاده- إلى اللاهوت والحياة المسيحية.

يقول دافيد فلوسر (1917- 2000)، أحد كبار الباحثين اليهود الذي يعتقد أن المسيحية يهودية بجوهرها، إلا أن أباء الكنيسة شوهوها وحرفوها عن مسارها اليهودي الأصلي: إن بولس الرسول اعتاد تحوير جوهر المواقف في اليهودية بما يتناسب مع معتقداته الجديدة، ويضيف: «[...] لقد اعتاد أن يأخذ مادة يهودية ويستنتج منها نتائج مناقضة لهدف مصادرها» فلوسر: http://www.daat.ac.il/daat/kitveyet/mahanaim/motivim-2.htm.

أي أن بولس اعتمد تشويه اليهودية، وتحديدا فيما يخصّ مبدأ عقيدة الخطيئة الأولى ومسؤولية (حوه) المرأة عنها. لكن يمكن ردّ إدعاء فلوسر بسرعة وبساطة متناهية. فلو تمعنّا في حكم (يهوه ءلوهيم) على (حوه) بالانقياد والانصياع لسلطة الرجل (ءدم)، وقول صاحب المزامير ويهوشع بن سيراخ المذكورين، اللذين حملاها الخطيئة الأولى. نفهم أن بولس لم يأت بما هو جديد أو مناقض لجوهر اليهودية وروحها، كما بيّنا، بل بالعكس- فقد بلور وطوّر مبدأ تحميل المرأة مسؤوليتها. فبولس قبل أن يقبل دعوة يسوع المسيح كان ابن المجتمع والعقيدة اليهودية، وتتلمذ عن أهم كهنتها في حينه، الرابي (جملئيل)، كان يدرك أكثر من غيره انحطاط مكانة المرأة جدا فيها، والعقيدة والفقه الخاصين بمبدأ هذه المسؤولية. لذا يمكن القول باطمئنان، أن بولس لم يعتد استنتاج ما هو مناقض لليهودية- كما يدعي فلوسر- بل يستمر في الخطّ العقائدي اليهودي. (سنلاحظ أيضا تحول الخطيئة الأولى إلى جزء لا يتجزأ من فكر أهم الفقهاء اليهود في القرون الوسطى: موسى بن ميمون).

أما أحمد زكي فيعتقد أن «شاؤول اليهودي الفريسي رسول عتاة الصهاينة الأوائل [...] قد اخترع لهم دينا عجيبا غريبا، لا هو بالدين اليهودي ولا بالمسيحي ولا بالوثني، إنما مزيج من الثلاثة وإن كانت تغلب عليه الوثنية القديمة، قائما على تأليه عيسى وصلبه وقيامته» (زكي؛ 1995 : 73). وزكي ينحى منحى ابن حزم (994- 1064) الذي يعتبر أن شاؤول كان مدسوسا لتضليل أتباع المسيح ودينه (ابن حزم؛ 1985 : ج1 164). يمكن قبول الشقّ الثاني من أحمد زكي، «قد اخترع..» (ولا يمكن نقاش ابن حزم لأنه موقف إيماني، والخلاف الإيماني بالإيمان يُحسم!)، لأن أفكار بولس جاءت خليطا من اليهودية والوثنية [الهيلينية]. ويساند هادي العلوي أحمد زكي، جزئيا، الرأي، فيقول: «وأقوال بولص ليس لها

سند في الأناجيل إلا أنها صارت جزءاً من الإيمان المسيحي لأن بولص هو المؤسس الفعلي للمسيحية» (العلوي؛1997: 82). يكفي أن نذكر مبدأين من المبادئ التي أدخلها على المسيحية، والتي لا نجد لها سندا في أقوال وأعمال يسوع في الأناجيل، لندرك ما يقوله العلوي. والمبدآن هما: مبدأ تحميل المرأة مسؤولية الخطيئة الأولى، ومبدأ التثليث: الأب والابن والروح القدس.. وكذلك الرغبة من في بناء مؤسسة مسيحية، على خلاف معلمه يسوع المسيح الذي لم يهتم بها أبدا، ويمكن المجازفة بالقول إنه رفضها.

أما القديس يوحنا فم الذهب (347- 407)[9] الذي يقتفي أثر الرسول بولس في تحديد مكانة المرأة الدونية مقارنة بالرجل، فإنه يفصّل صفاتها قائلا: «شراً لا بدّ منه، وإغواء طبيعيا، وكارثة مرغوبا فيها [بها]، وخطرا منزليا، وفتنة مهلكة، وشراً عليه طلاء. وكانت حواء [(حوه)] مجسدة في كل مكان، فحواء [(حوه)] هي التي خسر بها الجنس البشري جنات عدن، وهي أداة الشيطان المحببة التي يقود بها الرجال إلى الجحيم» (عند إمام؛ 1996: 144).

2. 4- مريم العذراء، المنعم عليها/ Kyckaretomen

جاء في الأناجيل أن الملاك جبرائيل جاء إلى الفتاة مريم العزباء باختيار السماء/ الله لها، كي تحمل دون علاقة جنسية بولد، سيكون مخلصا للبشرية من واقعها المأساوي. وفعلا حملت وأنجبت يسوع المسيح، الذي تقرن الديانة المسيحية باسمه.. وقد وصفتها الأناجيل بأوصاف منفردة، تخصّها هي دون غيرها من النساء: «ممتلئة نعمة /

---

(9) ولد في أنطاكية عاش متقشفا وزاهدا للغاية اصطدم مع المؤسستين الكنسية والسياسية لدفاعه عن الفقراء ووقوفه ضد الظلم والفساد ترقى في السلم الكهنوتي إلى أن أصبح أسقفا على القسطنطينية كان خطيبا ومتحدثا بارعا.

«Kyckaretomen» (لوقا1: 28 و42)، و«مباركة بين النساء» (لوقا1: 28 و42)، و«امرأة» (يوحنا2: 4 وغلاطية4: 4)،و«أم ربي» (لوقا1: 43)، و«التي آمنت» (لوقا1: 45)، و«أم يسوع» (مرقس3: 31)، و«أم المسيح» (متّى1: 21) و«امرأة متسربلة بالشمس والقمر وتحت رجليها وعلى رأسها إكليل من أثني عشر كوكبا» (رؤيا يوحنا12: 1). و الـ Kyckaretomen، وهي صفة لم ترد إلا مرّة واحدة في العهد الجديد والحياة المسيحية، وخاصة بمريم دون غيرها من النساء.

في هذه النقطة من مداخلتنا، نكون قد وقفنا على أهميّة وجود النساء الأربع المذكورات الواردات في نسب يسوع المسيح. والاختلاف حول مكانة المرأة/ النساء، في كل من عقيدة يسوع المسيح، ونقيضها في عقيدة بولس الرسول، الذي اعتبرها مصدر دخول الخطيئة[10] الأولى إلى الجنس البشري.. أما وجود مريم العذراء في هذه المكانة، فهو مستوى منفرد ومتفرد ولا يمكن اعتباره مكانة تشاركها فيها بقية النساء. ومن المفيد أن نذكر هذه المكانة، عندما نستعرضها كما وردت في القرآن والإسلام.

---

(10) لمزيد من التفاصيل عن الخطيئة الأولى باليهودية، يمكن مراجعة: أميمة بنت أحمد بن شاهين الجلاهمة- الخطيئة الأولى بين اليهودية والمسيحية والإسلام/ دراسة مقارنة- (ص 107- 170).

3
الإسلام
صوت واحد، ومكانة خاصة لمريم العذراء

«يا أيّها الناسُ اتقوا ربّكم الذي خَلَقَكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها، وبثّ منها رجالاً ونِسَاءً» (سورة النساء: 1).

يعي القرآن ما جاء في «التناخ» (والعهد الجديد)، عن قصة خلق الإنسانية، وتحديدا خلق الرجل/ (آدم) قبل المرأة/ (حوه). ويعي أيضاً المسؤولية عن الخطيئة الأولى، التي ألقيت على المرأة/ النساء، جراء إغواء الشيطان/ إبليس للمرأة (حوه) وتحريضها زوجها (آدم) على تحدي إرادة الله، بالمفهوم الإسلامي.

ويعي أيضاً مكانتهن وعدم مساواتهن في العقيدة (والشريعة) في الكتابين المذكورين.

ويعي أيضاً مكانتهن في الآداب الخارجية اليهودية والمسيحية. لذا نراه يتوجه متحدياً ما جاء في الكتابين وفي التراثين المذكورين.

3. 1- مساواة تامة في العقيدة

يتحدث القرآن عن خلق البشرية قائلا:

«إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ» (ص 71- 72).

إنه يتحدث عن خلق البشرية، دون أن يتحدث عن من هو الأول في عملية الخلق، الرجل أم المرأة. بل تحدث عن الرجل والمرأة/ الرجال والنساء بصيغة الجمع: «بشرا».. و«ناس». وبعد الخلق يقول محذرا آدم وزوجته من معصيته وتحدي إرادته:

«وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ» (سورة البقرة 35).

إلا أن آدم وزوجته عصيا أمره، وذلك بتحريض من الشيطان، بدليل قوله:

«فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ» (سورة البقرة 36).

و«وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا» (سورة طه 115).

«فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى» (سورة طه 120- 123).

والذي يتحدى إرادته لا بدّ من عقابه، وفعلا كان العقاب كما يقول القرآن:

«وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» (سورة البقرة 35- 37).

هذا هو عقاب الرجل/ آدم وزوجته اللذين تحديا إرادته. فقد كان العقاب متساويا للاثنين دون تمييز الرجل على المرأة، ودون تحميلهما عبئا أبديا، كما هي الحال في «التناخ» والعهد الجديد.

يشكل العقاب المتساوي للاثنين أرضية ممتازة لفهم مكانتها في العقيدة الإسلامية، كما يوضحها القرآن. فقد «نسي» القرآن حالة التحدي والتعدي، وبدأ معهما طريقا جديدا، إذ يقول:

«وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً» (سورة الإسراء 70).

فالتكريم لم يكن لآدم وزوجته فقط، بل لجميع البشر، دون تمييز في الجنس والعقيدة والإيمان. ثم يضع القرآن محددات مكانتهما/ الرجل والمرأة، في أماكن ومواضع وأبواب عدة في القرآن. وهي:

أولا- يوم القيامة:

«يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً» (سورة الإسراء 71).

أي أن الجميع سيمثلون للحساب دون اعتبار أولي لجنس الماثل

أمامه. أي أن الرجال والنساء متساوون من حيث المثول أمامه وحسابه. ولا تمييز لصالح الرجل، ولا تبخيس للمرأة. فقد ورد في القرآن:

«فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره» (سورة الزلزلة 17- 18).

ثانيا- مساواة في المغفرة:

«فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ» (سورة آل عمران 195).

إن أهم ما يرد في هذه الآية، هو المغفرة. أي أن الله سيغفر عن الجميع: الرجال والنساء، ممن عانوا في سبيل الدين الذي «أنزله».

ثالثا- في الثواب والعقاب:

يقول:

«وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (سورة البقرة 179).

«وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً» (سورة النساء 124).

و«مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ» (سورة النحل 97).

«مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ» (سورة غافر 40).

«وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» (سورة المائدة 45).

«وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا» (سورة النساء 93).

و«الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ» (سورة النور 2).

«وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» (سورة المائدة 38).

لقد ساوى القرآن في العقاب والثواب بين الرجال والنساء. وعندما استدعى الأمر حكمًا عقابيًا، فإنه أكد أيضًا أن العقاب متساوٍ للرجل والمرأة، بدليل قوله: «الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي» و«وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ».

رابعا- في الواجبات:

«وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

«وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (سورة التوبة 72).

«إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا» (سورة الأحزاب 35).

إن تأكيد القرآن على ذكر المذكر والمؤنث من صفات المسلمين المؤمنين، هو دليل آخر على المساواة في الواجبات بين الرجال والنساء.

ويمكن إجمال مكانة الرجال والنساء المتساوية في العقيدة الإسلامية في الآيات الآتية:

«كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ» (سورة المدثر 38).

«وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ» (سورة الطور 21).

و«لا تزر وازرة وزر أخرى» (سورة الإسراء 15، والأنعام 164، وفاطر 18، والزمر 7 والنجم 38).

إن تأكيد القرآن عل مسألة تحمل كل فرد مسؤوليته في عدة مواقع، هو تأكيد على تأصيل مبدأ المسؤولية الشخصية الفردية فقط- نعود ونكرر في العقيدة. وقطعا معرفيا وعقديا مع ما جاء به «التناخ» / اليهودية والعهد الجديد/ المسيحية. وهو تبرئة تامة لا شكّ فيها للمرأة والنساء عمومًا من مسؤولية الخطيئة الأصلية/ الأولى. هذه التبرئة، وهذا القطع سوف

نتلمسه عندما نأتي على ذكر تطبيقات من الشريعة، نقارن بواسطتها مدى تأثير الخطيئة الأولى والمساواة في العقيدة على واقع النساء: مكانتهن في الشريعة.

3 . 2- مريم العذراء ، الصديقة

ضمن سوره الـ 114 هناك في القرآن سورة تحمل: مريم. وتهدف إلى «تثبيت العقيدة في النفوس» (ملكاوي؛ 2000: 45)، ومريم، هي مريم العذراء والدة يسوع المسيح (في العهد الجديد). ومريم هو الاسم النسائي الوحيد المذكور في القرآن. وكان الله قد أرسل ملاكه جبريل ليخبر مريم، الفتاة العزباء، عن اختياره لها كي تلد عيسى المسيح، آخر أنبياء بني إسرائيل، دون زواج أو علاقة جنسية. ومنذ البشارة يؤكد القرآن حسمه الشديد في تحديد مكانتها السامية النادرة بين النساء، بدليل قوله:

«وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين» (سورة آل عمران 42).

ثمّ يضيف مؤكدا:

«ما المسيح عيسى بن مريم إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل وأُمّه صدّيقة» (سورة المائدة 75).

والصفة، «وأُمّه صدّيقة»، هي مفتاح فهمنا لفرادة وسموّ مكانتها. فهذه الصفة وردت مرة واحدة في القرآن، وهي صفة خاصة بمريم فقط. والقرآن لا يذكر مثنىً أو جمعًا لهذه الصفة: صدّيقة. وهي صفة لم تقرن إلا باسمها فقط. وقد لخص عبد الكريم إعلاوي شخصية ومكانة مريم في القرآن قائلا: «شخصية محسومة في خط الخير والإيمان منذ طفولتها الأولى، بل قبل أن تولد، وهي الشخصية النسائية الوحيدة في القرآن التي

حظيت بالاصطفاء والاختيار الإلهيين اللذين لم يحظ بهما سوى الأنبياء في القرآن!» (إعلاوي؛ 1995: 237). هذه إذن مكانة مريم الفريدة في السمو في القرآن. و«الصدّيقة»، يعادلها في العهد الجديد والمسيحية الـ«المنعم عليها/ Kyckaretomen».

لاحظنا في هذا القسم من مداخلتنا مدى القطع المعرفي، فيما يخصّ عقيدة ومبدأ مسؤولية المرأة/ النساء عن الخطيئة الأولى الأصلية، الذي أتمه القرآن/ الإسلام مع «التناخ»/ العهد القديم، والعهد الجديد/ المسيحية. فهذه العقيدة من شأنها أن تؤثر كثيرا على تحديد مكانتهن في الحياة العامة، كما سنرى عندما نجري بعض التطبيقات الشرعية.

4

مواقف ثلاثة مفكرين

في هذا القسم من مداخلتنا سنقوم «بالقفز» 27 قرنا يهوديا، و13 قرنا مسيحيا، وثمانية قرون إسلامية، لنقرأ مواقف ثلاثة من كبار المفكرين عند اليهود والمسيحيين والمسلمين. فـ«القفز» الزمني ليس معناه قفزا نوعيا وتطورا في فهم مكانة المرأة والنساء عند كل واحد من المفكرين، وهم: أبو الوليد بن رشد (1126- 1198)، وموسى بن ميمون (1138- 1204) وتوماس الأكويني (1225- 1274)، مقارنة بما قال به: «التناخ» والعهد الجديد والقرآن، أو تراث كل ديانة. ففكرهم ومواقفهم تجاه النساء جاء منسجما انسجاما تاما مع ما جاء في عقائد دياناتهم. اخترنا المفكرين الثلاثة المذكورين لسببن اثنين: أولهما- عاش الثلاثة في فترات متقاربة جدا، العصر الوسيط. وثانيهما- يعتبر الثلاثة هم الأبرز بين مفكري أتباع الديانات اليهمسلامية، ويقرن الثلاثة في سياق واحد باعتبارهم مجددين كل في دينه. مثلا لا يمكن معرفة مصير اليهودية والمسيحية دون وجود كل من ابن ميمون والأكويني، بينما الأمر في الإسلام يختلف كلّ الاختلاف؛ فابن رشد كان واحدا من عشرات المفكرين في العصر الوسيط وكان لحضور كل واحد منهم موقع ومكانة بارزة في الفكر والشريعة في الإسلام. ونادرا ما يذكر أحدهم دون أن

يذكر الآخرين في أي بحث أو دراسة أو مؤتمر، ولو على سبيل التأكيد على أهميتهم مجتمعين ثلاثتهم في الفكر الإنساني من العصر الوسيط إلى يومنا هذا.

4. 1- أبو الوليد بن رشد

عاش أبو الوليد بن رشد وأبدع في الأندلس في أوج مجد العرب المسلمين وعطائهم الفكري في العلوم كافة. ويعتبر أهم المفكرين والفلاسفة المسلمين، ليس فقط في العصر الوسيط، بل في العصور كافة، لسببين اثنين: الأول- قال بضرورة غلبة «العقل البرهاني»، فالعقل البرهاني يرى ضرورة اكتساب المعرفة بالكون وأنها تتم بواسطة قوى الإنسان الطبيعية من التجربة والحسّ والمحاكمة العقلية. وللعقل البرهاني الغلبة على العقل الديني، إذا اختلفا واصطدما. والثاني- قال أيضا أن «الله يعلم بالكليات فقط» (ليس عجزاً). أي أن الإنسان مسؤول عن واقعه بدرجة إدراكه له. (ابن رشد — تهافت التهافت (الطبيعيات: المسألة الأولى) 2001 ؛ ص 348 – 365]). أي تم تحميل الناس مسؤولية واقعهم المُعاش. فعندما نتحدث عن ابن رشد وفكره ومؤلفاته، لا بدّ لنا أن نذكر أبا حامد الغزالي (1048– 1111) وفكره ومؤلفاته. لأن خلاف وسجال الاثنين لا يزال موضع اهتمام جميع الباحثين والمهتمين بالفكر والفلسفة الإسلامية، وتحديدا كتاب الغزالي: تهافت الفلاسفة، الذي ساجل الفلاسفة المسلمين، وكتاب ابن رشد: تهافت التهافت، الذي ساجل به تهافت التهافت. في مؤلفه يعرض ابن رشد منطق العقل النقلي، المعتمد على القرآن دون الحديث، لأنه أعلن أن بضاعته في علوم الحديث «مُزجاة» (قليلة)، والرافض أيضا للتأويل الذي يمدّ المنطق العقلي إلى أقصى مداه. بالمقابل يعرض ابن رشد في مؤلفه منطق العقل البرهاني.

لم يخصص ابن رشد جهودا ومكانة خاصة في منطقه وفلسفته للنساء. بالطبع لم يكشف لنا عن سبب ذلك. ليس إهمالا لهن، بل العكس هو الصحيح كما يقول: «[140] قلت: إن النساء من جهة وأنهن نوع واحد [مع الرجال] في الغاية الإنسانية، فإنهن يشتركن وإياهم فيها [الأفعال الإنسانية] وإن اختلفن عنهم [عن الرجال] بعض الاختلاف [...]». أي وبما أنه يعتبرهن والرجال «نوعًا واحداً»، يكفي للإعلان عن هذا فقط، ثم التطرق لقضاياهن كجزء من قضايا المجتمع: الرجال والنساء. وابن رشد في اقتصاده و«بخله» الشديد في الجهود التي بذلها للحديث عن النساء، ينحى منحى مغايراً لفقهاء المسلمين كافة، الذين بذلوا جهودا وساعات إضافية من أجل شرح وتثبيت عدم مساواة النساء بالرجال.

خصص ابن رشد الفصل [34- النساء كالرجال: فيلسوفات وحكيمات]، والمكون من الفقرات [136- 145]، من كتابه: الضروري في السياسة: مختصر كتاب السياسة لأفلاطون، للحديث عن مكانة النساء في المجتمع والدولة المنشودين عنده. يقول: «[141] فإذا ذلك كذلك، وكان طبع النساء والرجال طبعا واحدا في النوع- التشديد من عندي/ أ. أ-، وكان الطبع الواحد بالنوع إنما يقصد به في المدينة العمل الواحد، فمن البيّن أن النساء يقمن في هذه المدينة بالأعمال نفسها، التي يقوم بها الرجال، إلا أنه بما أنهن أضعف منهم قد ينبغي أن يكلفن من الأعمال بأقلها مشقة». لذا «[139].. فيكون من بينهن محاريات وفيلسوفات وحاكمات وغير هذا [...]». ويؤكد بالقول: «[143].. ولا يمتنع أن يكون لذلك بينهن حكيمات وصاحبات رياسة [...]» (ابن رشد، 1998: 123-126). في أقوال ابن رشد ثلاث أسس مهمة في تحديد مكانة المرأة/ النساء في المجتمع، وحياة المجتمع بكامله؛ الأول- إنه يتحدث وينظر لمكانة النساء، مستندا إلى نصّ وروح القرآن، وليس إلى ما هو سائد في

المجتمع وبين الفقهاء. والثاني- الرجال والنساء جوهر واحد، أي لا فرق بينهما. والثالث- يحقّ للنساء أن يتقلدن أي منصب في الحياة العامة، ولا فرق بينهن وبين الرجال.

إذا أردنا أن نجمل فلسفة ابن رشد تجاه النساء، فإننا نقول: لقد أرسى قاعدة العلاقة المجتمعية بين الرجال والنساء على أساسين: الأول- وحدة النوع («نوع واحد» و«طبعٌ واحد في النوع»). والثاني- المساواة في تحمل أعباء المسؤولية المجتمعية في الحياة العامة (وبالطبع الحياة الخاصة أيضا). عمليا، هذا هو فكر التنوير.. وهذا هو الأصل أيضًا، بمعنى أن الرجال والنساء متساوون في كل شيء! بالطبع، وبدهي أن ابن رشد لا ينطلق من الواقع المُعاش وضرورة مساواة النساء بالرجال، بل من العقيدة الإسلامية، التي لم تميِّز ولم تحابِ الرجال على حساب النساء. ومن الشريعة (أيضًا) التي لم تحظر المساواة في العقيدة أو تقلد النساء المناصب العامة. ويكون ابن رشد قد وسّع أطر الشريعة لتساوي النساء بالرجال.

2.4- موسى بن ميمون

نشأ ابن ميمون وترعرع وكتب في الأندلس ومصر وفلسطين، ويقال إنه اعتنق الإسلام فترة قصيرة ثم عاد إلى اليهودية[11]. وتأثر بأبي حامد الغزالي[12]. ويقول يوءِل كرمر أن ابن ميمون تبنى منهج الأحكام الخمسة في

---

(11) لمزيد من التفاصيل عن حياة وفكر ومؤلفات ابن ميمون يمكن العودة إلى المقدمة التي أنشأتها لتحقيق الرسالة اليمنية له، والتي ستصدر في كتاب قريبا. وكذلك، ولفنسون 1936.

(12) «حافا لتروس — يافه» المتخصصة بالغزالي وابن حنبل، وهي تسأل وتبحث قائلة: «هل تأثر الرمبام بالغزالي؟» حيث تفتتح مقالها قائلة: «الرمبام لا يذكر الغزالي في مدوناته؛ إلا أن هذا ليس إشارة إلى أنه لم يعرف مدوناته [أي الغزالي] أو لم يقرأها. من الصعب الافتراض بأن كاتباً مسلماً كبيراً كهذا . توفي قبله بمائة سنة (في عام 1111) وكان معروفا

الشريعة الإسلامية، بدلا عن الأحكام الثلاثة التي كانت متبعة في الشريعة اليهودية[13].

لتحديد مكانة وأهميّة موسى بن ميمون في اليهودية (العقيدة والشريعة والطقوس)، الذي له إسهامات عظيمة جدا في كل حقل من هذه الحقول، فإننا نردد مع جميع اليهود القول الآتي: لم يأت بعد موسى إلا موسى. وموسى الأول، هو مُشه بن عَمْرَم «التناخي»، وموسى الثاني، هو موسى بن ميمون، موضوع حديثنا. وقد وصفه يشعيهو ليبوفيتس (1903–1994) قائلا: «الرمبام [ابن ميمون] هو الشخصية الأعظم في معرفة الله الدينية– الإيمانية في اليهودية منذ الآباء والأنبياء وصاعدا؛ هذه عظمته،

جيدا في الشرق الإسلامي كما المغرب، لم يصل إلى الرمبام، ثم تعرض أربع قضايا تأثر فيها ابن ميمون بوضوح بأبي حامد الغزالي:

الأولى: رفض ابن ميمون المنطق الفلسفي كما رفضه الغزالي /

الثانية: آمن ابن ميمون - كالغزالي - بضرورة الابتعاد عن ملذات الحياة، وآمن بالتصوّف الذي يطهر القلب، كما آمن بأن الوصول إلى درجة عالية من التصوف من شأنها أن تجعل الله يسكب نوره في قلب المؤمن /

الثالثة: اتفق ابن ميمون مع الغزالي، على أن حدود التوكل على الله واسعة جدا، لأن الله عالم بالكليات والجزئيات/

الرابعة: اتفقا على مبدأ التسليم الكلّي إلى الله، مثل الميت في يدي غاسله (حافا لتسروس- يافه- «هل تأثر الرمبام من الغزالي؟»: ١٩٧٧؛ לאל ١٦٣ - ١٦٩).

[13] - يكتب يوءِل كِرْمر دراسة بعنوان: «تأثير القانون الإسلامي على الرمبام: الأحكام الخمسة»، يقول فيها: إن ابن ميمون أول من استخدم الأحكام الخمسة من بين الفقهاء اليهود والأحكام هي: الفرض/ الواجب، والمندوب/ السنّة / المستحب، والمباح/ الحلال، والمكروه والحرام/ المحظور؛ في تفسيره لقوانين التوراة فقبل تأثر ابن ميمون بها، لم يكن هناك أحكام خمسة في الفقه والقضاء اليهوديين بل كانت ثلاثة أحكام فقط هي التي ترد في التلمود الأدب والحزالي وهي: واجب – معفي، وممنوع – مسموح، وكشير (طاهر) – ومرفوض (نجس). ويدعم الباحث رأيه بعدة أمثلة لم تكن معروفة قبل ابن ميمون (كرمر- تأثير الشريعة الإسلامية على الرمبام: الأحكام الخمسة: ١٩٧٦؛ לאל ٢٢٥- ٢٤٤).

وهذا سرّ أهميته. من هذه الناحية يجب القول إن مكانته الخاصة في تاريخ اليهودية لا تتقرر كفيلسوف بل كمؤمن كبير، فإيمانه يتجلى في عبادة الله» (ليبوفتس، 1991: 11). وعندما كتبت مقدمة: الرسالة اليمنية، التي تعتبر أهم الوثائق اللاهوتية التي تؤسس عليها اليهودية (واليهود) موقفها من الإسلام (والمسلمين)، تبيّن لي أن ابن ميمون استخدم مناهج ومعارف علم الكلام الإسلامي لتطوير اليهودية، وإلحاقها بفكر العصر في حينه. ولابن ميمون الباع الأطول في وضع أسس الطقوس اليهودية، الخاصة بالنساء تحديدا.

لم يتحرر ابن ميمون من عقيدة الخطيئة الأولى ومسؤولية المرأة/ (حوه) عنها. فقد ورد في تاج كتبه: دلالة الحائرين، الذي يعتبر أهم كتاب فكري كلامي (من علم الكلام) في تاريخ اليهودية ما يأتي: «ومما يجب أن تعلمه وتتنبه عليه [إليه] كون الثعبان لم يباشر آدم [(عدم)] بوجه ولا كلّمه. وإنما كانت محاورته ومباشرته لحواء [(حوه)] وبتوسط حواء [_حوه)]، تأذى آدم [(عدم)] وأهلكه الثعبان والعداوة الكاملة إنما هي حاصلة بين الثعبان وحواء [(حوه)] وبين ذريته، وذريتها. ولا شك أن ذريتها هي ذرية آدم [(عدم)]. وأغرب من هذا ارتباط الثعبان بحواء [(حوه)] أعني ذريته وذريتها في الرأس والعقب وكونها غالبة له في الرأس وهو غالب لها في العقب فهذا أيضا بيّن» (ابن ميمون؛ 1993: 384). عندما صادفت الباحثة دبوره شخطرمان هذا النصّ في كتاب ابن ميمون، ادعت أنه- أي ابن ميمون- تأثر بالأدب المسيحي المتعلق بالخطيئة الأولى، ومسؤولية المرأة/ النساء عنها (شخطرمان؛ 1978: 65- 89). شخطرمان وتتسى على ما يبدو ما ورد في «التناخ» عن الخطيئة الأولى، كما أوردناه بمعرض حديثنا عن مكانة النساء في العقيدة اليهودية. وعندما هاجم الفقهاء الذين لا يفهمون أصول الدين- كما ادعى- قال: «وهم أجهل الناس وأضل سبيلا من البهايم [البهائم] وقد

امتلت [امتلأت] أدمغتهم من عجايب [عجائب] وخرافات وخيالات فاسدة كالصبيان والنسوان [...]» (بن ميمون؛ مقالة في بعث الموتى: ع. ب). أي أنه يعتبر النساء غير مكتملات عقلا ووعيا كالرجال، بل إنهن كالأطفال الذين لم يبلغوا بعد. بهذا يكون ابن ميمون قد عبّر تعبيرا أمينا عما جاء به «التناخ». فرغم اعتباره مجددا كبيرا ومؤسسا لليهودية المعاصرة إلى حدّ بعيد (كما أشرت في تقديمي للرسالة اليمنية)، فإنه بقي محافظا للغاية في ما يتعلق بمصالح وحقوق النساء مقارنة بالرجال.

3.4- توماس الأكويني

يعتبر أهم مفكر مسيحي في العصور الوسطى. تأثر بمنهج أرسطو العقلاني. تلقبه الكنيسة الكاثوليكية بـ«المعلم الجامع» و«المعلم الملائكي».. وقد طوِّب قدّيسًا عام 1323.. ولا تزال الكنيسة الكاثوليكية تتبنى آراءه ومنهجه في محاربة الإلحاد و«الانحراف والهرطقة».. وفي العام 1880 خلع عليه البابا ليو الثالث عشر لقب «راعي المدارس الكاثوليكية». ويمكن القول إنه كان لسان حال المؤسسة البابوية.

بقي الأكويني أمينا جدا على حرفية وروح «التناخ» والعهد الجديد، بتحميل المرأة/ (حوه) مسؤولية الخطيئة الأولى، وكأن ما «اقترفته» (حوه) حدث قبل لحظات، ولم تمرّ الإنسانية بثورات معرفية وأخلاقية كبيرة وعظيمة التأثير على عصره، بدليل قوله: «عصي الإنسان الله بسبب خطأ حواء [(حوه)] في الحكم على ما هو خير، وهو يحمل الآن في كل جيل وزر هذه الخطيئة الأولى»(عند إمام؛ 1996: 135). ليس هذا فقط، بل يتساءل: أكان ينبغي خلق المرأة مع بداية الخلق؟ ثم يقدم ثلاثة اعتراضات: الأول- إن الأنثى نتاج مشوّه للرجل. ويضيف: ولا ينبغي أن يكون هناك شيء ناقص أو مشوّه أو عيب في بداية الخلق، ومن ثم فإن المرأة ما كان ينبغي أن تخلق مع

بداية خلق الكائنات. والثاني- خضوع المرأة وتقييدها إنما جاء نتيجة للخطيئة [...] ومن ثم فما كان ينبغي أن توجد المرأة في بداية خلق الكائنات قبل الخطيئة [على اعتبار أن الخطيئة قدرية لكي تمهد لمجيء يسوع المسيح]. والثالث- لأنها أغوت (عدم) بالتعدي على إرادة الله (عند إمام؛ 1996: 150- 151).

بالطبع، لا يمكن تحديد مكانة المرأة، دون تحديد مكانة الرجل والمسيح في العقيدة واللاهوت المسيحيين. وهاكم تحديد مكانتها عند الأكويني: «الرجل أعلى من المرأة، كما أن السيد المسيح أعلى من الرجل. ومن الأمور الثابتة التي لا يمكن أن تتغير: أن مصير المرأة في الحياة خاضع لتأثير الرجل، ولا سلطان لها على سيدها» (عند إمام: ص135). بكلمات أخرى: إن مكانة المرأة مقارنة بالرجل جوهرانية، أي أنها غير خاضعة لمتغيرات الحياة والواقع المُعاش. ولا يتوانى اللاهوتي ورجل العقيدة المسيحية عن أن يفتي فتاوى، هي صميم العلوم الطبيّة- إن كان لها وجود أصلا!!- فيضيف معطيا تسويغات مُقَارِنة عن طبيعة المرأة والرجل، فيقول: «إن المرأة خاضعة للرجل لضعف طبيعتها الجسمية والعقلية معًا. والرجل مبدأ المرأة ومنتهاها، كما أن الله مبدأ كل شيء ومنتهاه. وقد فرض الخضوع على المرأة عملا بقانون الطبيعة، أما العبد فليس كذلك. ويجب على الأبناء أن يحبّوا آباءهم أكثر مما يحبون أمهاتهم» (عند إمام: ص 144). ثم يحدد دورها المجتمعي قائلا: «إننا نحتاج إلى المرأة للمحافظة على الجنس البشري، ولإمدادنا بالطعام والشراب أيضا، وإن كان دورها الفريد الذي لا نظير له إنما هو الحمل، ما دامت الأهداف البشرية الأخرى يستطيع الرجل أن يقوم بها على نحو أفضل بمساعدة غيره من الرجال» (عند إمام: ص 146).

الأكويني الذي اهتم كثيرا بعقيدة الخطيئة الأولى، لم يكتف بتحديد

مكانة النساء بأقل كثيراً من الرجال، بل ذهب إلى أبعد من هذا بكثير إذ برر وجود الرّق في المجتمعات نتيجة للخطيئة الأولى، وأن الرقّ «وسيلة اقتصادية في عالم يجب أن يكدح فيه بعض الناس ليُمكّن بعضهم الآخر من الدفاع عنهم (عند إمام: ص 143).

بكلمات أخرى: إن سيطرة الرجال على النساء نابع من سببين: الأول- أن جدتهن (حوه) أغوت جدهم (ءدم)، الأمر الذي أسفر عن طرده من الجنّة. والثاني- أن قوة الرجال البدنية والعقلية أفضل بكثير من قوة النساء البدنية والعقلية. وبالطبع لا ينسى أن يحرض الأبناء على الأمهات! ليس هذا فقط، بل يبرر الرقّ كنتاج الخطيئة الأولى.. لذا بتنا نعلم لماذا كان الأكويني أحد المنظرين لدى السلطة البابوية، التي هدفت إلى استغلال الناس روحيا ودينيا وماديا. فالاستغلال الروحي الديني والمادي هما أشد الضمانات لكي تستمر أية مؤسسة في استغلال وقمع الفقراء والمستضعفين فيها.

يقول المثل العبري: الثمرة لا تسقط بعيدا عن الشجرة؛ وقد تعرفنا على فكر كل مفكر من الثلاثة الذين ذكرناهم فيما يخصّ المرأة والنساء. ولم كل من أفكار ابن ميمون والأكويني متطابقة بينهما فحسب، بل متطابقة مع عقيدة الخطيئة الأولى. أما ابن رشد، فقد انفصل عنهما انفصالا لا يمكن أن يقترب منهما البتّة. والقول إن ابن رشد قد عمل بروح القرآن فقط، لا يكفي. فابن رشد وإن لم يشتغل اشتغالا مباشرا في الشريعة وفي الأحوال الشخصية تحديدا، فقد وضع الخطوط العريضة لمساواة فعلية بين مكوّنيّ المجتمع: الرجال والنساء.

5
تطبيقات في الشريعة

من الدارج اعتبار الشريعة هي التي تحدد مكانة المرأة مقارنة بالرجال وفي الحياة العامة. هذا صحيح جزئيًا. إلا أننا في هذا الفصل سنقوم بقياس مكانة المرأة بناء على الشريعة والعقيدة معا. فالعقيدة رغم كونها من العناصر الإيمانية المحضة، إلا أننا سنفحص تأثيرها على الشريعة أيضًا. نكون بهذا قد قمنا بقياس مكانة المرأة من خلال معادلة: العقيدة والشريعة.

في هذا الفصل من بحثنا سنقوم بعرض مقارِن لخمس من القضايا الشرعية، من العام جدا إلى الخاص جدا، والتي تتراوح بين تقلد النساء مناصب في الحياة العامة، وبين حقهن في المتعة الجنسية. ومن شأن هذه القضايا أن تتيح لنا فهما أوليًا عن علاقة العقيدة بالشريعة. والقضايا هي:

5. 1- تقلد المناصب في الحياة العامة :

يعتبر تقلد النساء المناصب في الحياة العامة مقياسا لمدى علّو أو انخفاض مكانتها في المجتمع. وعندما نتحدث عن المكانة، لا نقصد السياسية فقط، بل مدى حصتها في الثروة الوطنية العامة ومشاركتها

الفعلية في اتخاذ القرارات السياسية الاجتماعية، وتأثيرها ليس على بني جنسها من النساء فحسب، بل على جميع المستضعفين والمقهورين.

أ- اليهودية- يعج «التناخ» بالنساء وأخبارهن، ويذكر البعض ممن تبوأن مناصب عامة، مثل (دبوره) التي كانت قائدة جيش. إلا أنه ومع تبلور اليهودية في عقيدة مستقلة بها، واستنادا إليها، كما عرضناها في الفصل الأول من بحثنا هذا، والتي تحمّل المرأة مسؤولية الخطيئة الأولى، وكما بلورها أيضا موسى بن ميمون (في 2.4) تحظر اليهودية على النساء تقلد أي منصب في الحياة العامة. فقد أفتى ابن ميمون قائلا: **«لا يقلدون امرأة في المُلك كما قيل «ملكا» (تثنية 17: 15) ولا ملكة، وأيضًا كل مهام يسرءيل لا يقلدون إلا رجلا»** (مِشنَه توره، شوفطيم، شرائع الملوك والحروب الفصل الأول الشريعة الخامسة). أي تمنع المرأة منعا باتا من الحضور في الحياة العامة[14]. ولذلك لا تزال النسوة في المجتمعات اليهودية المتدينة جدا محرومات من تقلد أي منصب عام. وظلّ دورهن منحصراً في الاعتناء بشؤون المنزل، أو الاشتغال في مهنٍ ذات عائد اقتصادي زهيد. أما الأزواج فمنصبّون على دراسة العلوم الدينية أو العمل، وغالبا ما يكون عملهم في المجتمع المتدين الضيق. وفي أحايين كثيرة تكون المرأة المعيل الوحيد للأسرة! بكلمات أخرى: تقوم المرأة بعمل مزدوج: تعيد أنتاج المنزل مجتمعيا واليهودية في آن واحد، لأن الزوج إما أنه لا يعمل، أو يعمل جزئيا ليتمكن من تحصيل العلوم الدينية المرهقة. فتحصيل العلوم الدينية، في رأي المتدينين هو الذي حافظ على اليهود كجماعة عريقة جدا.

ب- المسيحية- رغم التناقض الحادّ بين موقفي يسوع المسيح

---

(14) لمزيد من التفاصيل عن إقصاء النساء عن الحياة العامة يمكن قراءة: يعيل عتسمون- «اليهودية وإقصاء النساء من الحيّز العام- لالا ١٣- ٤٣.

والرسول بولس في تحديد مكانة النساء العقائدية، إلا أن الغلبة بالتالي كانت لبولس، الذي تقتفي عنده المسيحية أثر اليهودية في هذه القضية. فبولس مؤسس المسيحية العملية، اعتبرهن تابعات للرجال، بدليل قوله: «أَيَّتُهَا النِّسَاءُ، اخْضَعْنَ لِرِجَالِكُنَّ كَمَا يَلِيقُ فِي الرَّبِّ» (كولوسي 3: 18). و«أيهَا النِّسَاءُ اخْضَعْنَ لِرِجَالِكُنَّ كَمَا لِلرَّبِّ، لأَنَّ الرَّجُلَ هُوَ رَأْسُ الْمَرْأَةِ كَمَا أَنَّ الْمَسِيحَ أَيْضاً رَأْسُ الْكَنِيسَةِ، وَهُوَ مُخَلِّصُ الْجَسَدِ. لَكِنْ كَمَا تَخْضَعُ الْكَنِيسَةُ لِلْمَسِيحِ، كَذَلِكَ النِّسَاءُ لِرِجَالِهِنَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ» (إفسس 5: 22- 24). بكلمات أخرى: ليس من حقّ النساء التسلط على الرجال، ولا في أي مستوى من مستويات الحياة. يقول البعض إن المسيحية اعتبرت العديد من النساء قديسات، ألا يعتبر هذا منصبا اجتماعيا؟! بالطبع لا، فالقديس هو رتبة إيمانية تقوم فيها المرأة بخدمة جمهور المؤمنين والكنيسة تحديدا. وأعتقد أن السماح بتطويب النساء قديسات ينبع من المكانة الخاصة لمريم العذراء والدة يسوع، فمريم هي شخصية إيمانية فقط، بمعنى أن المؤمنين لا يهمهم شأن تاريخيتها من عدمها.

بالطبع، لم تتمكن اليهودية والمسيحية من حجب النساء كافة عن الحيّز العام وتقلد المناصب العامة. وما حضور بعض النساء اليهوديات في الحياة العامة إلا تحدٍ للشريعتين، وإن حضرن فيه، فقد حضرن بإذن خاص من المؤسسة الدينية بالخروج من البيت إلى الكنس للعبادة وإلى المحاكم للشهادة (إيلان؛ 2000: 47- 61 ولفين- ملاميد؛ 209: 224). أما في المسيحية فقد كانت ظروف النساء أشدة قسوة مما هي عليها في اليهودية؛ ففي القرون الوسطى نظمت الكنيسة الكاثوليكية (الفاتيكان) حملات قمع منظمة تسمى: محاكم التفتيش ضد كل من تشكّ هذه المؤسسة بأنه يعارضها أو يعرضها للخطر، وكان للنساء اللواتي تململن من سطوة الكنيسة حصة خاصة من القمع.. وعندما يتحدث الأدب المسيحي عن

نساء في الحياة العامة، فهو يقصد النساء اللواتي تقدمن بالإيمان وأصبحن قديسات.

ج- الإسلام- منذ فجر الإسلام الأول اضطلعت المرأة بعدة مهام عامة. فقد كانت السيدة خديجة بنت خويلد الزوجة الأولى للنبي محمد تاجرة. وعمل محمد عندها قبل الدعوة الإسلامية. وكانت السيدة خديجة وجها مجتمعيا لها دورها في الحياة العامة في المجتمع المكيّ. وشاركت النساء أيضا في الغزوات الإسلامية كافة مشاركة فعلية، سواء كمشجعات للمقاتلين وللدعوة الإسلامية عموما، كالخنساء الشاعرة، أو مضمدات للجرحى أثناء المعارك. ولم يستثنين أيضًا من القيام بمهام إيمانية عديدة. فالسيدة عائشة بنت أبي بكر، وفاطمة بنت محمد جمعتا القرآن مثل العديد من الرجال. وكانت كل من عائشة وفاطمة والعشرات من النسوة الأخريات من راويات الحديث الذي يعتبر المصدر الثاني للشريعة الإسلامية. وبحسب ابن حبان شكّلت النساء 16.5٪ من مجمل رواة الحديث في الجيل الأول من الرواة. وتستنتج روت روديد في مقالها الموسوم: «نساء راويات، مثقفات ومتعلمات في تاريخ الإسلام»، من كتاب ابن حجر «الإصابة في تمييز الصحابة» أن «القضاة ودارسي الحديث هؤلاء فحصوا صدقية الروايات دون الاهتمام بنوع الرواة الأوائل» (روديد؛ 2000: 7). ويذكر هادي العلوي أسماء النساء اللواتي كانت لهن مكانة مجتمعية عامة: أم عيسى بن إبراهيم الحربي وكانت عالمة ومفتية (القرن الرابع الهجري). وستيتة بنت القاضي أبي عبد الله أم عبد الواحد وكانت عالمة ومفتية على مذهب الشافعي (القرن الرابع الهجري). وأم السلامة بت القاضي أبي بكر أحمد بن كامل وكانت فقيهة ومحدثة، نقل عنها كل من الأزهري والتنوخي وأبو يعلى بن الفراء وغيرهم (القرن الرابع الهجري). وبنت البقال التي كتب عنها الخطيب البغدادي. وكريمة

بن أحمد قرأ عليها الخطيب صحيح البخاري في خمسة أيام.. وفاطمة بنت العباس وكانت عالمة ومفتية بحسب المذهب الحنبلي (العلوي؛ 1996: 67- 68). عموما لم يرد أي نصّ في القرآن، يحرم النساء من تقلد المناصب العامة. ولعلّ موقف ابن رشد: «فيكون من بينهن محاريات وفيلسوفات وحاكمات وغير هذا». «ولا يمتنع أن يكون لذلك بينهن حكيمات وصاحبات رياسة»، خير دليل على عدم المنع بل السماح بتقلد المرأة جميع المناصب في الحياة العامة. وكذلك يُباح للمرأة أن تكون إماما للمصلين (أشقر؛ 2005: 15- 21).

كان الشيخ علي جمعة مفتي الديار المصرية قد أفتى، في شهر شباط 2007، بحقّ المرأة في تولي منصب رئيسة الجمهورية. إلا أنه التزم بالموقف الإسلامي التقليدي الذي يحظر على النساء تولي مقاليد الخلافة قائلا: «الفتوى التي تناولتها وكالات الأنباء تشير إلى منصب خليفة المسلمين وهو منصب من التراث الإسلامي القديم ولم يعد له وجود في الوقت الحالي على الساحة الدولية منذ سقوط الدولة العثمانية وإنهاء خلافتها عام 1924»[15]. فتوى جمعة ليست جديدة على فقهاء المسلمين في العصر الحديث، فقد سبقه إلى نفس الفتوى كل من الشيخين الصادق المهدي ويوسف القرضاوي. والحقيقة أن واقع العديد من الدول الإسلامية، أي التي تعتبر الشريعة الإسلامية مصدراً أساسياً لقوانينها، يؤكد ما جاء به الشيوخ جمعة والمهدي والقرضاوي. فبناظير بوتو والشيخة حسنية تقلدتا، منصب رئيسة الحكومة في الباكستان، ورئيسة الجمهورية في بنجلادش على التوالي. ونادرا ما تخلو حكومة في الدول الإسلامية من وزيرة أو أكثر.

---

[15] مقتبس عند طه في صحيفة «الشرق الأوسط»، 2 شباط 2007، وعلى شبكة الإنترنت: http://www.asharqalawsat.com/details.asp?section=1&issue=10296&article=405013

هذا ناهيك عن تقلد النساء المناصب في جميع قطاعات التربية والتعليم والصحة والاقتصاد .

باختصار: مكانة النساء واضحة جدا: الشريعتان اليهودية والمسيحية تحظران على النساء تقلد المناصب في الحياة العامة. أما المسلمات فيحقّ لهن تقلد أي منصب. أما اليوم فإن النساء اليهوديات والمسيحيات يتقلدن المناصب العامة بفضل القوانين الوضعية وليس الشرعية.

وبالطبع: مثلما تعرضت النساء اليهوديات والمسيحيات لقمع المؤسسة الدينية، تعرضت النساء المسلمات أيضًا، إلا أن القسوة لم تكن نابعة من أسس في العقيدة، بل كانت جزءا من تعقيدات الواقع المُعاش بالأساس.

2.5- شهادة النساء في المحاكم

أ- **اليهودية**- تحظر الشريعة اليهودية الشهادة على في المحاكم. تقول: «**كل من هو مؤهل للحكم — مؤهل للشهادة، ويوجد من هو مؤهل للحكم إلا أنه غير مؤهل للشهادة**». (التلمود البابلي، مَسخت نده ورقة د. ف صفحة ب). ويفتي يوسف قارو (1488- 1575[16]): «المرأة مرفوضة للحكم والشهادة» (الطاولة الممدودة، حوشن هَمشباط علامة ز بند د).

ب- **المسيحية**- والمسيحية أيضا لا تتحدث عن منع أو إباحة شهادة النساء. فالآباء منعوا النساء من الشهادة اعتمادا على ما ورد في العهد القديم. أمّا في القانون الكنسي/ Canon Law، الذي نشأ على أرضية

---

[16] – من كبار الفقهاء اليهود ولد في الأندلس هاجر مع أسرته طفلا إلى فلسطين واستقر في صفد. من أهم مؤلفاته (وفي الشريعة عامة) كتابه الموسوم: «شُلْحان عروخ/ الطاولة الممدودة» لخص فيه ونظّم وشرح الشريعة اليهودية وأحكامها وتقاليدها في كل مجالات الحياة. يعتبر كتابه مرجعا رئيسًا للعامة والخاصة من اليهود.

القانون الروماني، فإنه يسمح للنساء بالشهادة في حالات محددة، بالحالات التي من شأن شهادتها فيها أن تسرع في الإجراءات القانونية، أو عندما ينعدم الشهود الرجال. ولا فرق بين طائفة وأخرى في هذه القضية.

ج- الإسلام- أما الإسلام فإنه يبيح شهادة النساء، ولكنه يشترط أن تكون شهادة امرأتين مساوية شهادة رجل واحد، كما ورد في القرآن:

«واستشهدوا شهيدين من رجالكم، فإن لم يكونا رجلين، فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء. أن تضل إحداهما فتذكّر إحداهما الأخرى» (سورة البقرة 282).

وإنّ حرمان النساء من الشهادة في المحاكم، هو خطوة إضافية لمنعهن من الاشتراك والتأثير في الحياة العامة.

5. 3- الميراث والحرمان منه

أ- اليهودية- جاء بصريح النصّ «التناخي»: قال (يهوه) لـ(مُشه): «وَتَقُول لِبَنِي يسرءل: أَيُّمَا رَجُلٍ مَاتَ وَلَيْسَ لَهُ ابْنٌ تَنْقُلُونَ مُلْكَهُ إِلى ابْنَتِهِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ ابْنَةٌ تُعْطُوا مُلْكَهُ لإِخْوَتِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ إِخْوَةٌ تُعْطُوا مُلْكَهُ لأَعْمَامِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لأَبِيهِ إِخْوَةٌ تُعْطُوا مُلْكَهُ لِنَسِيبِهِ الأَقْرَبِ إِلَيْهِ مِنْ عَشِيرَتِهِ فَيَرِثُهُ» فَصَارَتْ لِبَنِي يسرءل فَرِيضَةَ قَضَاءٍ كَمَا أَمَرَ يهوه مُشه (العدد 27: 8- 11). النصّ واضح للغاية: الأبناء يرثون الآباء، وفي حال غيابهم يرثه البنات. وإذا لم يكن له بنات يتم البحث عن الذكور في قبيلته. وكذلك لا ترث الزوجات أزواجهن. ويلخص الرابي (عوبديا يوسف) ناطقا باسم الشريعة اليهودية فيما يخصّ ميراث النساء قائلا: «معروف في حكم الشريعة، أن البنات لا يرثن آباءهن عندما يكون له أولاد [يرثونه]، وهذا بعكس قوانين الدولة السارية في المحاكم العلمانية [المدنية] التي تقضي للبنات بإرث مساوٍ لإرث الأولاد، [والسؤال] هل

تسمح الشريعة للبنات بأن يطالبن بحصتهن في محكمة علمانية [مدنية]، ليأخذن حصر إرث بموجب القانون [العلماني/ المدني]، اعتمادا على قول حَزَل[17] كما هو متبع؟» (عوفاديه يوسف، أسئلة وأجوبة القسم الرابع علامة س. هـ). والجواب: لا قطعا! فعوفاديه يوسف يحرم على النساء المعاصرات التوجه إلى المحاكم المدنية مطالبات بحصتهن من الميراث، لأنه لا يزال أمينا للشريعة اليهودية التقليدية.

بالطبع لم يرق حرمان النساء من الميراث للعديد من اليهوديات، ولذلك فإنهن توجهن إلى المحاكم الإسلامية في العهد العثماني للحصول على حقهن في الميراث: «وكما يبدو، فإن توجه النساء اليهوديات للقاضي [للمحاكم الإسلامية] في قضايا الإرث، كان لمعرفتهن بأن الشريعة الإسلامية تعطيهن حقًا محددا في الإرث على عكس الشريعة اليهودية التي لا تعترف بحقّ المرأة في الميراث» (يزيك؛ 1997: 121).

ب- المسيحية- أما الشريعة المسيحية فلم تتحدث أبدا عن حقّ النساء في الميراث. ولا تختلف طائفة عن أخرى في هذه المسألة[18].

يعتقد هادي العلوي أن سبب عدم ذكر الأناجيل الميراث: «لأنها [أي المسيحية اليسوعية] ضد اكتناز الأموال وليس في تعاليمها فسحة لمال

---

[17] - الأصل: ح. ز. ل، وهي اختصار لـ: حَخَميم زِخرام لِفرخاه/ ومعناه الفقهاء رحمهم الله وتقرأ: حزال. وهو الأدب الذي كُتِب في القرون الميلادية الأولى، وقبل عند الجمهور اليهودي المتدين ويشمل: الـ(مشناه)، الـ(توسيفتا)، والـ(مخيلتا) والـ(مدراش هلخا والمدراش أجداه)، والتلمودين الـ(بابلي واليورشلمي).

[18] - سمعت من سوريين وعراقيين عندما قابلتهم في أوروبا ما يأتي: تبنت بعض الكنائس المشرقية الشريعة الإسلامية فيما يخصّ حق النساء في الإرث وقامت بعض هذه الكنائس بنقش آيات الميراث القرآنية على جدران الكنائس في بعض هذه الأقطار. ولنا أن نستنتج، على ضوء ما جاء به يزيك، أن بعض النساء المسيحيات توجهن إلى المحاكم الشرعية الإسلامية للحصول على حصصهن في الميراث

يورث» (العلوي؛ 1996 : 82). هذا صحيح إذا ما اعتبرنا كل ما جاء في الأناجيل/ العهد الجديد هي تعاليم يسوع المسيح. وبما أننا أشرنا إلى اختلاف بين كل من يسوع المسيح وشاؤول الطرسوسي/ بولس الرسول، فيمكن أن نقول ما يأتي: إن عدم ذكر العهد الجديد لميراث المرأة، معناه حرمانها منه، لأن تعاليم يسوع هي التي حددت مكانة المرأة في المسيحية. ولذلك جاء حرمانها من الميراث منسجما مع تحميلها مسئولية الخطيئة الأولى.

ج- **الإسلام**- أما الشريعة الإسلامية فتقرّ بحق النساء في الإرث، لكن بمقدار غير مساوٍ للرجال، بدليل النصّ القرآني:

«يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ»[19] (سورة النساء 11- 12).

---

[19] - وضع محمد شحرور تفسيرا مفصلا للآيات المذكورة قائلا: «1 ـ الإرث قانون عام أوصى به الله سبحانه لكل أهل الأرض لذا فهو قانون احتياطي يعمل في حال عدم وجود

الوصية، أو في حال أن الوصية لم تستغرق التركة كلها ﴿من بعد وصية يوصي بها أو دين﴾. فيه قواعد عامة تحقق العدالة على المستوى العام (المجموعات) وليس على المستوى الخاص (الأفراد). ومن هنا فنحن نجد الذكور في حالات إرثية بعينها يأخذون أكثر من الإناث، بينما نجد الإناث في حالات أخرى يأخذن أكثر من الذكور.

2 - قوانين الإرث الواردة في التنزيل الحكيم، جاءت لتطبق في حالات اجتماع الجنسين ذكر وأنثى (أم، أب / أخت، أخ / زوج، زوجة). أما الحالات التي ينفرد فيها بالإرث جنس واحد، كأن يكون للمتوفى أولاد ذكور ليس بينهم إناث، أو أولاد إناث ليس بينهن ذكور، أو كأن يكون له إخوة ذكور بلا أخوات، أو أخوات إناث بلا أخوة فالإرث في هذه الحالات يكون بالتساوي ولا فضل لوارث على آخر من الجنس نفسه. ولا حاجة لوحي مفصل يبين هذا الحل البديهي وهي قوانين مغلقة مكتفية ذاتياً لاتحتاج إلى أي شرح أو تفصيل من خارجها، لا لحديث نبوي ولا لرأي صحابي أو تابعي.

3 - الولد في آيات الإرث يكون ذكراً ويكون أنثى. أما مسألة أن الذكر يحجب والأنثى لا تحجب وأن الولد المذكور في آيات الإرث هو الذكر حصراً، فهذا اجتهاد قام على دوافع سياسية وعلى نظرة ذكورية للمجتمع، لم يبق ما يضطرنا اليوم إلى الإصرار على التمسك به.

4 - قانون الإرث قانون مغلق من حيث أن الورثة المذكورين فيه هم الذين يرثون حصراً، ومن لا ذُكِرَ له لا يرث.

5 - الأصول مهما علوا، يدخلون في عنوان الآباء. ووجود أحدهم على قيد الحياة في ضوء (الأقرب فالأبعد) يقطع إرث من يليه صعوداً.

6 - الفروع مهما نزلوا، يدخلون في عنوان الأبناء. ووجود أحدهم على قيد الحياة في ضوء (الأقرب فالأبعد) يقطع إرث الذي يليه نزولاً.

7 - الإرث للزوجة الأولى حصراً، أما الزوجة الثانية والثالثة والرابعة في حال التعددية الزوجية فلا إرث لهن.

8 - الأصول مهما علوا، والفروع مهما نزلوا، والزوج والزوجة الأولى هم الورثة من الدرجة الأولى، أي هم الأقرب، كما نص بذلك التنزيل الحكيم.

9 - أما ورثة الدرجة الثانية فهم الاخوة ذكوراً وإناثاً. شرط أن يكونوا على قيد الحياة لحظة توزيع التركة.

أ - بوجود الزوج أو الزوجة، يذهب جزء محدد من التركة للاخوة الأحياء، ويأخذ الزوج أو الزوجة حصته التي حددها له الله سبحانه، وتعتبر هذه الحصة هي الحد الأدنى، لأن ما

وجعل هذه القسمة من حدود الله، والذي يلتزم لا بها يدخله النار ويذيقه العذاب الشديد، بدليل قوله:

«تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ» (سورة النساء 13- 14).

تحرم اليهودية والمسيحية النساء من ميراث الأهل، إذا كان هنالك وريثٌ ذكر. وكذلك تحرم الزوجات من ميراث أزواجهن. أما الإسلام الذي فيمنحهن نصف ما يمنح للذكور من الميراث، فإنه يعطيهن الحقّ والإمكانية للظهور في الحياة العامة، والقيام بأدوار مختلفة، ليس منّة من أحد، بل هو حقّ لهن يكفله الشرع وقدراتهن الذاتية. والسبب واضح للغاية: فقد حرمت اليهودية والمسيحية النساء من الإرث، كنتيجة لحرمانهنّ من تقلد المناصب العامة والارتزاق منها. النساء اللواتي يمارسن مهنا ومناصب خارج المنزل

يبقى من التركة بعد إعطاء الإخوة الأحياء حصتهم، يعود إلى الزوج أو الزوجة باعتبارهما الأقرب

ب. بغياب الزوج أو الزوجة وغياب الأصول والفروع، يرث الأحياء من الإخوة التركة ولا ينتقل هذا الإرث إلى أولادهم إن لم يكونوا على قيد الحياة لحظة توزيع الإرث

ت. الإخوة في الإرث سواء، أكانوا من أم وأب، أم من أم، أم من أب

10 . قلنا إن الإرث قانون مغلق من حيث الورثة، فلا يدخل فيهم من لم تذكره الآيات ونضيف أنه مغلق من حيث النسب أي لا يجوز أن تزيد النسب الموزعة أو أن تنقص عن 100٪ من التركة وبعبارة أخرى لا يجوز العمل بمبدأ الرد والعول، لأن اللجوء إليهما يعني ببساطة أننا لم نحتسب الحصص على أساس النسب التي حددها الله سبحانه في قوانينه وحدوده (شحرور

:http://www.shahrour.org/bookListPages.php?cid=271&pid=468&page=295&bid=4&imagetopurl=drasat4.jpg) .

يراكمن ثروة بمعزل عن الرجل، لذا يكون من حقهن ومصلحتهن المشاركة في اتخاذ القرارات في السياسة والمجتمع. وبما أن اليهودية والمسيحية حرمتا النساء من تقلد المناصب العامة، فإنها حرمتهن من المشاركة في اتخاذ القرار على نتاج جهودهن. أما الإسلام فاضح في هذه المسألة: بما أن للنساء الحقّ في تقلد المناصب العامة والعمل خارج البيت، يحقّ لهن أيضًا المشاركة في اتخاذ القرارات التي تخصّ جهودهن، أي توزيع الإرث على بنات جنسهن أيضا.

5-4- حقّ الأب في بيع ابنته

أ- اليهودية- جاء في سفر الخروج ما يأتي: «وَإِذَا بَاعَ رَجُلٌ ابْنَتَهُ أَمَةً لاَ تَخْرُجُ كَمَا يَخْرُجُ الْعَبِيدُ» (الخروج 21: 7). وقد اتفق الفقهاء على أن عملية البيع يجب أن تتم قبل بلوغ البنت سن السابعة من عمرها. أما ابن ميمون فقد وضع شروطا قاسية جدا على عملية البيع هذه. فقال: «لا يحقّ للأب أن يبيع ابنته إلا إذا كان فقيرا ولم يبق لديه شيء لا أرض ولا منقولات ولا حتى ملابس تغطي جسده، وبعد ذلك [عندما يتحسن وضعه الاقتصادي] يلزم الأب بافتدائها، لأن ذلك [بقاءها مباعة] خلل في العائلة» (مشنَه توره، شرائع العبيد الفصل الرابع الشريعة الخامسة).

ب- المسيحية- أما المسيحية، فلم تتطرق لهذه المسألة مطلقًا.

ج- الإسلام- أما القرآن/ الإسلام فإنه يحرّم بيع الآباء أبناءهم، لأنه يرفض أن يتحول الأحرار إلى عبيد. والإسلام، على الرغم من عدم تحريمه العبودية، فإنه شجع على تحرير العبيد، والتراث الإسلامي زاخر بمثل هذه القصص والأحداث.

بعبارة موجزة: اليهودية تبيح للأب أن يبيع ابنته، بينما المسيحية تصمت، أما الإسلام فيحرّمه تحريما قطعيا.

5.5- النساء والمتعة الجنسية

أ- اليهودية- لقد حدد «التناخ»/ اليهودية وظيفة العلاقات الجنسية بين الرجال والنساء بقوله: «خَلَقَ ءلوهيم الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِه عَلَى صُورَةِ ءلوهيم خَلَقَهُ ذَكَراً وَأُنْثَى خَلَقَهُمْ وَبَارَكَهُمَا ءلوهيم وَقَالَ لَهُمَا: «تناكحوا وتكاثروا وَامْلأُوا الأَرْضَ وَأَخْضِعُوهَا وَتَسَلَّطُوا عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى كُلِّ حَيَوَانٍ يَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ» (تكوين 1: 27- 28). وبما أن المرأة/ (حوه) هي التي أغوت الرجل/ (ءدم) وأكل من الشجرة المحرمة، ثُم مارسا الجنس، أطلقت اليهودية عنان خيالها للقدح بأخلاق وقدرات المرأة الجنسية. فتعتبرها شبقة جنسيًا ولا حدود لشهوتها، فقد قال رابي يهوشع: «تريد المرأة قسطا [قليلا من الغذاء] وتفاهات [حياة جنسية ممتعة] من تسعة أقساط وعُشْر عزوف [عن الحياة الجنسية[20]]» (البابلي، المُنحرفة ك. أ: ع. ب)). أي أنها لا تنوي فعليا العزوف عن العلاقات الجنسية إطلاقا. ولذلك قيل: «لا تكثر الحديث مع المرأة، لأن كل حديث المرأة ليس إلا أعمالاً فاجرة» (الأقنعة الصغيرة، أقنعة الاستقامة، فصل سفاح المحارم شريعة 13). لذا تعاقبها بعدم المتعة من العلاقات الجنسية التي ترغب فيها، وتتحدث فقط عن حاجات الرجال. يقول ابن ميمون: «زوجة الرجل مباحة له، لذلك فإنه كلما رغب أن يفعل بها يفعل، يمارس الجنس معها، ويقبل كل عضو يريده في جسدها [-]» (شرائع منع العلاقات الجنسية فصل 11 شريعة 9). أي أنه يمارس الجنس معها كما يريد هو، وليس كما تريد هي، وليس كما يريد الاثنان معا.

---

[20] - الإيضاحات التي تدخل النصّ الأصلي هكذا [-] من تفسير راشي، مكانة المرأة في الشريعة اليهودية، في موقع: www.daatemet.org.

وكـذلك يحـق للرجـل أن يـضع مـلاءة بينـه وبينـها أثنـاء الممارسـة الجنسية، «قيل عن الرابي يوسي بن حلفتا تزوج أهه زوجة [أرملة] أخيه فحرثها خمس حرثات [خمس ممارسات جنسية] وخمس غرسات غرس [أنجب خمسة أولاد] وعن طريق الملاءة مارس الجنس» (التلمود الأورشليمي ييموت فـ أ: هـ أ).

ويحق لـه الـزواج من طفلة: «وكان يـصحق ابن أربعين سـنة عندما تـزوج ريقه ابنـة بتوءل» (تكوين 25: 20). وكتب راشـي (1040- 1105[21]): «انتظرهـا حتـى صـارت صـالحة للممارسـة الجنـسية سـن ثـلاث سـنوات وتزوجها». وقد حدد التلمود سن الـزواج وممارسـة الجنس قـائلا: «طفلـة بنـت ثـلاث سـنوات ويـوم واحـد قابلـة للـزواج وممارسـة الجـنس» (التلمـود البابلي، ييموت ن ز: ع ب).

ويحـق للرجـل أيضا معاشـرة البغايـا، يقـول رابـي ءليعـزر: «إذا تـيقن الرجل أن غريزته تتغلب عليه- يذهب إلى مكان لا يعرفونه فيه، ويلبس السواد ويتمعطف بالسواد، ويفعل ما يرغبه قلبه، ولا يدنس اسم جلت قدرته علنا» (التلمود البابلي، موعيد قطان ي. ز: ع. أ).

هـذه الأمـور مجتمعـة تتحـدث عـن حاجـات الرجـال، بينمـا حاجـات النساء مهملة. لـيس هـذا فقـط، فبعض هـذه الحاجـات مـن شـأنها أن تمس بكرامـة المـرأة إن لم تكـن هـي راضـية عنـها- وعـادة مـا تكـون غير راضـية. وتمسّ صـحتها النفـسية والبدنيـة، كممارسـة الجـنس مـع طفلـة في ثـلاث سـنوات ويـوم!! فعلاقـات الرجـال الجنـسية في اليهوديـة، ليـست في إطـار الـزواج فقـط، بـل بإمكـان الرجـال أن يمارسـوا الجـنس، لـيس فقـط مـع

---

[21] - هو رابي شبُمُه يصحق ولد وعاش في فرنسا. تلقى تعليمه في ألمانيا. من أشهر مفسري «التناخ» والتلمود في اليهودية الأشكنازية ويعتبر لغويا بارعا، فقد جدد واستحدث 1300 كلمة في اللغة العبرية ويعتبر من أهم اليهود الأشكنازيين

زوجاتهن، بل مع الإماء والبغايا . بينما المرأة تمارس الجنس مع زوجها فقط، ووفقا لرغباته! ونذكر: يحقّ للرجل اليهودي أن يتزوج 18 امرأة، «لا يكثر [الرجل] له نساء- إلا ثماني عشرة» (بابلي، سنهدرين ورقة ك. أ صفحة أ).

بقي أن نضيف ما يلي: وتعتبر اليهودية المرأة ذات ميول شاذة ومرضية في علاقاتها الجنسية، لذا تمنعها من الجلوس في البيت دون عمل، «لأن العطالة تجلب الفجور [الجنسي]» (بابلي، كِتوبوت س ا: ع ب). وليس تجاه الرجال فقط، بل تجاه الحيوانات أيضًا . يمنع التلمود البابلي النساء الأرامل من تربية الكلاب: «تُمنع الأرملة من تربية كلب خشية أن تضطر لمضاجعته» (بابلي، بينا مصيعا ع ا: ع أ). وفي النقاش حول السماح للمرأة بشرب الخمر قيل: كأس واحدة- حسنة للمرأة، اثنتان- تؤديان إلى انحلالها، وثلاثة كؤوس- تطلب بلسانها ممارسة الجنس، وأربعة كؤوس- تسارع إلى ممارسة الجنس مع الحمار في السوق (بابلي، مَسيخت كتوبوت س أ: أ). ويؤكد موسى بن ميمون ذلك بالقول: «تمنع الأرملة من تربية كلب خشية [مضاجعته]» (مِشْنَه توره، شرائع المضاجعة ف: ك ك، هـ: ط ز).

ب- المسيحية- تقف المسيحية موقفا محافظا جدا من العلاقات الجنسية. وقد حددتها في إطار الزواج الأحادي الأبدي. يقول الرسول بولس: «وأمَّا ما كَتَبتُم به إليَّ فيَحسُنُ بِالرَّجُلِ أن لا يَمَسَّ المَرأة، ولكن، لتَجَنُّبِ الزِّنى، فلْيَكُنْ لكُلِّ رَجُلٍ امرَأَتُه ولكُلِّ امرأةٍ زَوجُها، ولْيَقْضِ الزَّوجُ امرَأَتَه حَقَّها، وكذلكَ المَرأةُ حَقَّ زَوجِها. لا سُلطَةَ للمَرأة على جَسَدِها فإنَّما السُلطَةُ لِزَوجِها، وكذلك الزَّوجُ لا سُلطَةَ لَه على جسَدِه فإنَّما السُلطَةُ لامرأته. لا يَمنَعْ أَحدُكُما الآخَرَ إلاَّ على اتِّفاقٍ بَينكُما وإلى حين كَي تَتفرَّغا لِلصلاة، ثُمَّ عودا إلى الحَياةِ الزَّوجيَّة لِئَلاَّ يُجَرِّبَكُما الشَّيطانُ

لقلَّة عفَّتِكُما[-] وأقولُ لغَيرِ المُتَزَوِّجِينَ والأرامِل إنَّه يَحسُنُ بِهِم أن يَظَلُّوا مِثْلِي [عـزّاب] فـإذا لم يُطيقـوا العَفـاف فلْيَتَزَوَّجـوا، فـالزَّواجُ خَـيرٌ مِـنَ التَّحَـرُّق» (1 كورنتـوس 1- 9). بكلمـات بـسيطة: تـتم العلاقـات الجنـسية في إطار الزواج الأحادي الأبدي، ليس للمتعة وتواصل النسل، بل للامتناع عن الخطيئة[22].

ج- الإسلام- خصص الإسلام قطاعا لا بأس به للعلاقات الجنسية بين الـزوجين والـشريكين (أقـصد بالـشريكين: غـير المتزوجين). فقـد جـاء في القرآن:

«[ ] فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ» (سورة النساء 3).

«وَأَنكِحُوا الأيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ» (سورة النور 32).

و«فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ» (سورة النور 25).

«وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ[23]» (سورة النساء24).

---

[22] تلخص نعومي وولف المتعة الجنسية للنساء المسيحيات قائلة: «لا توجد أية علاقة تذكر للإيمان والمعتقدات المختلفة ومتعة الرجل الجنسية، بينما بإمكانها أن تقص، مثل سكّين المطهرين بالمتعة الجنسية للنساء» (ﭬﺎﯕﻒ, ٢٠٠٤: ١٤٩). وذلك لأن المسيحية تقرر أن المرأة هي التي أغوت الرجل ودفعته لمارسة الجنس معها، وبذلك حملتها مسؤولية الخطيئة الأولى، فإن التربية المسيحية ربت النساء على هذه المسؤولية والذنب، والمذنب لا يستمتع إن مارس ممارسة ما تحت طائلته.

[23] يفسر هادي العلوي هذا النصّ بالقول:

أ- مباح للرجل الزواج بأكثر من امرأة واحدة.

ولم تحدد الشريعة الإسلامية السن الأدنى للزواج وممارسة الجنس مع الزوجة. فقد اختلف الفقهاء فيه. ولنا أن نفهم أن السن الأدنى للزواج وممارسة الجنس مع الزوجة، هو ما جاء في سياق زواج النبيّ محمد من عائشة بنت أبي بكر؛ فإن معظم الروايات تؤكد أن النبيّ تزوجها وهي ابنة ست سنوات، ودخل بها وهي ابنة تسع.

واهتم الإسلام بالمتعة المرجوة من هذه العلاقة. ينقل العلوي عن كتاب (تحف العقول) عن علي بن أبي طالب: «إذا أراد أحدكم أن يأتي أهله فلا يعاجلها وليمكث يكن منها مثل الذي يكون منه». وكذلك ينقل عن الغزالي: «إذا قضى وطره منها فليتمهل حتى تقضي هي أيضا نهمتها فإن إنزالها ربما يتأخر بتهييج شهوتها ثم القعود عنها إيذاء لها والاختلاف في طبع الإنزال يوجب التنافر إذا كان الزوج سابقا إلى الإنزال والتوافق ألذّ عندها ليشتغل الرجل عنها فإنها ربما تستحي» (عند العلوي؛ 1996: 45). بكلمات بسيطة وواضحة: لا يقرّ الإسلام مبدأ المساواة في الزواج، لكنه يميل أكثر إلى المساواة بالتسري وزواج المتعة. ويساوي بين الشريكين في المتعة الجنسية.

ب- مباح للرجل التسري.

ت- مباح للرجل إقامة علاقات جنسية في إطار زواج المتعة (النساء 24).

ث- مباح للمرأة التي مارست الجنس نتيجة زواج المتعة، أن تعقد عقد زواج آخر وآخر، مع الرجل الذي تتفق معه على المدة والأجر.

ج- تحرم الزوجة أو الزوجات الشرعيات من إقامة علاقة جنسية مع غير أزواجهن.

ح- مباح للإماء إقامة علاقات جنسية مع أكثر من رجل، إذا سمح سيدهن بذلك.

خ- بينما يحرمن الزوجات (الشرعيات) من هذا التصريح.

وينقل عن (كتاب النكاح من الجزء الثاني) ما يأتي: «وللشيعة حكم غريب في نكاح المتعة إذ يجيزون للبكر الراشدة أن تمتع نفسها وليس لوليها حقّ الاعتراض عليها» (العلوي؛ 1996: 44).

خلاصة القول أنه للديانات مواقف مختلفة من المتعة الجنسية للنساء، فاليهودية[24] والمسيحية تحرمانها، بينما الإسلام يعتبرها حقًا أساسيا لهن.

جاءت التطبيقات الشرعية التي عرضناها للتوّ تعبيرا صادقًا جدا عن تأثير مبدأ وعقيدة الخطيئة الأولى الأصلية، على واقع النساء اليهوديات والمسيحيات. بينما بدا واضحا عدم تحميلهن تلك المسؤولية في الإسلام. صحيح أن الشريعة الإسلامية لم تساوِ بين الرجال والنساء، إلا أنها حسنت من وضعهن ومكانتهن مقارنة باليهودية والمسيحية.

---

(24) - يعتقد مردخاي فريدمان أن بعض النساء اليهوديات مارسن زواج المتعة متأثرات بالنساء المسلمات في القرون الوسطى، מרדכי ע' פרידמן- ההלכה כעדות לחיי המין אצל היהודים שבארצות האסלאם במי הביניים: כסוי הפנים ונישואי 'מתעה'- (143- 160).

خاتمة ونقاش

في الختام لا بد من استعراض بعض النتائج والقضايا الهامة التي توصلنا إليها . وكذلك بعض الأفكار التي من شأنها أن تكون أن تنير الطريق أمام التنويريين العرب والمسلمين. وفيما يلي هذه النتائج:

الأولى- تتفق اليهودية والمسيحية على عقيدة تحميل المرأة مسئولية الخطيئة الأولى، التي نتج عنها خروج الإنسانية من الجنّة، والنعيم الإلهي. وبكلمات أخرى: تعتبر اليهودية والمسيحية أن سبب شقاء الإنسانية وبؤس حياتها على الأرض، هو تمرد (المرأة/ حوه) على الإرادة الربّانية، بتناول ثمار من شجرة الوعي/ المعرفة. والذي معناه: إن سبب شقاء الإنسانية، هو وعي حواء المستقل وتمردها على السلطة الزمنية والدينية، ولذلك وجب توبيخها واضطهادها دوماً .

الثانية- قَطَعَ الإسلامُ، قطعا معرفيا ثابتا لا شكّ فيه أبدا، مع عقيدة الخطيئة الأولى الأصلية، التي بلورت العقيدة في تحديد مكانة النساء. واعتبر أعمالَ كل فرد، رجلا أو امرأة، هي مسؤولية فردية، لا يشاركه فيها أحد . ومبدأ المسؤولية الفردية، هو مثابة ثورة في الفكر الإنساني، الذي ينظر إلى الفرد كذات مستقلة وواعية ومسؤولة عن أعمالها . فمنذ تلك الفترة لم يعد الرجال والنساء كتلتين اثنتين فقط أمام الله، ويحاسبها بمعيارين وموازين مختلفة بحسب الجنس، بل أصبحت الإنسانية أفرادا يحاسب كل فرد منهم على أعماله فقط.

الثالثة- يعتبر ظهور مريم العذراء، الفتاة اليهودية العذراء التي أنجبت المسيح دون علاقة جنسية أو زواج، في كل من المسيحية اليسوعية والإسلام وغيابها في اليهودية، رسالة بالغة الدلالة، ليس لتأكيد عملية القطع المعرفي، ولا لتأكيد قدرة الله غير المتناهية ومعجزاته المختلفة فحسب، بل يختلط فيها اللاهوت مع الواقع المُعاش، والرسالة هي: عندما قطعت كل من المسيحية اليسوعية والإسلام مع عقيدة الخطيئة الأولى الأصلية، تحدتا اليهودية وأعلتا من شأن المرأة إعلاء لم يبلغه الرجال. فهما تقولان: لم تعد الخطيئة الأولى تلعب دورا في تحديد مكانة المرأة في الواقع المُعاش واللاهوت، بل بإمكان المرأة أن تصبح «والدة الإله».. والدة عيسى الذي سيعود إلى الأرض من أجل تخليص الإنسانية من واقعها المأساوي.

لم تبق صورة المرأة الفريدة حبيسة المعجزات، المتمثلة بمريم العذراء، كشخصية إيمانية فقط. بل تكرر الأمر عند المسلمين الشيعة في شأن امرأة حقيقية تاريخية، هي فاطمة بنت النبي محمد وزوج علي بن أبي طالب، حيث أنزلها الشيعة منزلة من التقديس تكاد تضاهي مريم العذراء، أو مريم البتول. الأمر الذي يؤكد أهميّة تحرير النساء من عقيدة الخطيئة الأولى، وتأثيرها على الواقع المُعاش. وكان ابن حزم الأندلسي قد اعتبرها (هي وأم إسحق وأم موسى) نبيات (ابن حزم؛ 1985 ج5: 119- 121). فيكون ابن جزم قد استنطق النصّ القرآني بنبوة النساء علما بأن القرآن لا يذكر ذلك ويؤد على نبوّة الرجال فقط. وابن حزم هو واضع أسس «فقه المحبّة» الذي يدفع النساء كثيرا في المكانة الاجتماعية.

الرابعة- لاحظنا تأثير الإيمان/ «عالم الغيب» على الواقع المُعاش/ «عالم الشهادة»، عندما عرضنا بعض الشرائع المقارنة. أي أن الإيمان ومهما بلغت غيبيته وقِدَمُه تاريخيا، فإنه ذو تأثير على الواقع المُعاش، كما لاحظنا في بعض التطبيقات الشرعية. وأبرز هذه التأثيرات هو عقدة الذنب التي

تشعر بها النساء المسيحيات عندما يمارسن الجنس، ليس في عصر الآباء، بل في عصرنا الحالي- كما جاء عن نعومي وولف.

❖ ❖ ❖

هذه هي النتائج التي توصلنا إليها، لكن السؤال: هل ما أردناه هو رياضة ذهنية فقط، والنبش في قضية لا تشغل بال المشتغلين في قضايا النساء وحقوقهن في المجتمعات التي لم تفصل بعد، المقدس عن الواقعي، والعام عن الخاص، والدين عن الدولة!؟

بالطبع، للرياضة الذهنيّة أهميّة بالغة في شحذ أذهان الباحثين والكتّاب وتطوير مهاراتهم، لأن من شأن هذه المهارات أن تُستخدم في أبحاث تؤثر في الواقع المُعاش. أما النبش في قضايا منسية، فيعتبر تحدياً للقوى التي تفرض أجندتها في ميادين الأبحاث والممارسات، التي تسمى نضالا! فالكشف عن هذه القضايا، معناه تحدٍ لهؤلاء والتعرف على الذات الجمعية، خاصة عندما يتم الكشف عن أمور من التراث الجمعي، قومياً كان أو دينياً . وفي اعتقادي، أن أهميّة هذا الحديث، تكمن في الكشف عن الصفحات الناصعة والمناهج التقدمية في التراث. وأقصد هنا الكشف عن مبدأ مساواة النساء والرجال في العقيدة الإسلامية وبعثه وتفعيله. وكذلك بعث ابن رشد من تحت ركام أبي حامد الغزالي، الذي لم يقرّ بأن سبب اشتعال القطن عندما نقربه من النار، هو ارتفاع حرارة القطن لدرجة الاشتعال، بل اعتبرها صدفة! فموقف ابن رشد من المجتمع، والعلاقة بين الرجال والنساء، هو موقف وفكر تنويريان- بدون قوسين بتاتًا- ولذلك يجب بعثه لعدة أسباب:

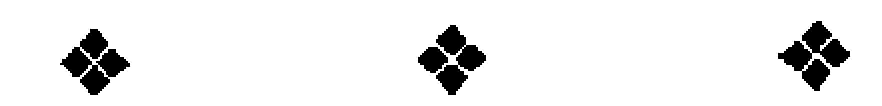
الأول- لأنه جزء من تراثنا القومي (والديني، لمن يريد). ولن يتم

«توطين» العلوم الاجتماعية والإنسانية، إلا بالكشف عن إسهامات الأقدمين من علمائنا ومفكرينا فيها.

الثاني- لأن ابن رشد هو أبرز المفكرين والفلاسفة المسلمين الذي تلاقحوا مع ثقافة اليونان القديمة، التي كان لها قصب السبق في تأسيس تراث فلسفي عالمي.

الثالث- لا يمكن للعاملين والعاملات في قضايا حقوق الإنسان والمرأة في المجتمعات العربية (الإسلامية) الاعتماد فقط على مفكرين وفلاسفة ليسوا من وعيهم الجمعي. ونسيان ابن رشد وغيره. فحضور ابن رشد على رأس المفكرين والفلاسفة الذين يُسترشد بهم في مشاريع تحقيق المساواة بين الرجال والنساء في مجتمعنا، له أهميّة بالغة، إذ يمكن مخالفة ومحاججة المحافظين والرافضين للمساواة بين الرجال والنساء، بأدوات ومفاهيم، ليست من خارج تراثهم، بل من صلبه.

الرابع- إن بعث ابن رشد، معناه (أيضًا) «استعادة الابن» الذي كان قد ضيّعه أهله، من فكر التنوير الأوربي، الذي تأسس على فلسفة ومناهج ابن رشد. ثم نستطيع التوجه إلى أوروبا مصطحبين معنا أحد أبنائنا التنويريين، الذي أصبح أستاذهم أيضا. عندها فإن الحديث معهم، أو حوار الحضارات كما يحلو للبعض التغني، لا يكون حوار بين تابع ومتبوع، بل حوار الأستاذ والشريك الأصيل.



رغم مساواة النساء بالرجال في مستوى العقيدة الإسلامية، فإن الشريعة والفقهاء والمشرعين في الأنظمة التي تتبنى الإسلام أساسًا أو أحد أسس تشريعها، ظلموا النساء، بادعاء أن تلك الشرائع هي أحكام قرآنية

مقدسة. حسنًا: فيما يلي سنورد ستة أحكام قرآنية مقدسة، وكيف تعامل معها الواقع المُعاش. فعندما استدعت الضرورة، تعامل معها القائمون على تطبيق الشريعة والمشرعون بإبداع. دعونا نرى:

أولا- إلغاء حصة «المؤلفة قلوبهم»: يرد في القرآن بصريح العبارة ما يأتي: «إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم» (سورة التوبة 60). وبما أن حديثنا عن «المؤلفة قلوبهم»، فإننا نعرّفهم أولا: هم وجهاء القبائل والعشائر الذين أسلموا، إلا أن إسلامهم بقي ضعيفا، وغير المسلمين (الكفار) أيضًا، من الذين كان لهم نفوذ بارز بين قبائلهم وعشائرهم، وبسبب مكانتهم وتأثيرهم أعتاد النبيّ محمدا أن يعطيهم من الصدقات. إلا أنه وبعد وفاته، في عهد الخليفة الراشدي الأول، أبي بكر الصديق، رفض عمر بن الخطاب الاستمرار في هذا النهج. وهاكم ما ورد في بدائع الصنائع: «وهو الصحيح، لإجماع الصحابة على ذلك، فإن أبا بكر وعمر -رضي الله عنهما- ما أعطيا المؤلفة قلوبهم شيئًا من الصدقات، ولم ينكر أحد من الصحابة -رضي الله عنهم-. فإنه روي أنه لما قبض رسول الله -صلى الله عليه وسلم- جاؤوا أبا بكر وسألوه أن يكتب لهم خطًا (كتابة رسمية) بسهامهم. فأعطاهم ما سألوه، ثم جاؤوا إلى عمر وأخبروه بذلك فأخذ الخط من أيديهم ومزقه، وقال: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، كان يعطيكم ليؤلفكم على الإسلام، فأما اليوم فقد أعز الله دينه، فإن ثبتم على الإسلام وإلا فليس بيننا وبينكم إلا السيف. فانصرفوا إلى أبى بكر فأخبروه بما صنع عمر رضي الله عنهما، وقالوا: أنت الخليفة أم عمر؟ قال: هو إن شاء. ولم ينكر أبو بكر قوله وفعله وبلغ ذلك عامة الصحابة، فلم ينكروا، فيكون ذلك إجماعًا على ذلك، ولأنه ثبت باتفاق الأمة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- إنما كان يعطيهم ليتألفهم

على الإسلام، ولهذا أسماهم الله «المؤلفة قلوبهم» والإسلام يومئذ في ضعف وأهله في قلة، وأولئك كثير ذوو قوة وعدد، واليوم بحمد الله عز الإسلام، وكثر أهله واشتدت دعائمه، ورسخ بنيانه، وصار أهل الشرك أذلاء. والحكم متى ثبت معقولاً بمعنى خاص، ينتهي بذهاب ذلك المعنى» (بدائع الصنائع: 45/2). بكلمات أخرى: عندما ارتأى عمر أن حاجة الدفع إلى «المؤلفة قلوبهم» قدّ ولّى زمانها، ولم تعد تخدم المجتمع الإسلامي- بل أصبحت عبئا عليه، ألغاها!

ثانيا- عام الرمادة: هو العام الثامن عشر للهجرة، عندما أقحلت وأصبح تراب الأرض كالرماد، والريح تسفيها، وأصبحت وجوه الناس لونها كالرماد من شدة الفقر والجوع. في ذلك العم عطّل عمر بن الخطاب حدّ السرقة، كما ورد نصه واضحا في القرآن: «والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم» (سورة المائدة 38). مرة أخرى، يتضح أن عمر، الخليفة الراشدي الثاني، عطل العمل بهذه العقوبة، لأنه اعتقد أن السرقة في هذا العام، هي حالة استثنائية من شدة الجوع، فقط. وعليه توجب تعطيلها، لا الاستمرار فيها ووضع الناس بين مطرقة المقدس وسندان الواقع المُعاش.

ثالثا- عدم توزيع الفيء: لقد أوجب القرآن ضرورة توزيع الأراضي المفتوحة، دون حرب، على الجنود والمقاتلين وغيرهم، بدليل قوله: «وَمَا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِه مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاء وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِه مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّه وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاء مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ. لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّه وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ

وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ. وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ» (سورة الحشر 4- 8). إلا أنه عندما فتح المسلمون أرض العراق، ولخصوبتها سموها : أرض السواد، رفض عمر بن الخطاب الالتزام بهذه النصوص، ورفض توزيع الأراضي على المعنيين وهم جميع المذكورين في النصّ القرآني، لأنه أرادها أن تكون ملكا استراتيجيا للأمة، فذلك أفضل من أن تؤول إلى أفراد ويبقى نفعها محصورا فيهم وفي نسلهم. مرة أخرى نلاحظ إصرار عمر بن الخطاب على تجاوز النصوص القرآنية عندما اقتضت الضرورة ذلك.

رابعا- إلغاء مفهوم ومكانة «أهل الذمّة» الدونية: يحدد القرآن/ الإسلام علاقة المسلمين بالآخرين غير المسلمين من أهل الذمّة والكفار، علاقة ليست نديّة؛ باعتبار أن الدين الإسلامي يجبّ ما قبله من أديان وعقائد. فقد ورد ذكر أهل الذمة في القرآن بصيغتين اثنتين: «أهل الكتاب» في 31 موضعا، و«الذين أوتوا الكتاب» في 30 موضعا. وبعد أربعة عشر قرنًا من نشأة الإسلام، ووفقا لتغير العلاقات الاجتماعية والمجموعاتية في الدول الإسلامية المعاصرة، أفتى راشد الغنوشي، زعيم حركة الإصلاح التونسية قائلا: «إن مصطلح أهل الذمة مصطلحٌ فقهي لم تبق حاجة إليه [في العصر الحاضر] بعد أن استقرت العلاقة بين المسلمين وغيرهم، وتأسست على أساس «المواطنة» داخل المجتمع الإسلامي، وعلى أساس 'التعاهد' خارجه» (الغنوشي؛ 1993: 29). ينضم إلى الغنوشي كثيرون من المفكرين والفقهاء المسلمين، الصادق المهدي.. وفهمي هويدي، ناهيك عن السواد الأعظم من

المسلمين، ممن يعتقدون أن مفهوم أهل الذمة ولّى في الدولة الحديثة، دولة المواطنين. والمعنى واضح وبليغ: إن عدم نديّة تعامل المسلمين بغيرهم، ليست ثابتة أو مقدسة. بل علاقة تحكمها الظروف الاجتماعية والدولية.

إن فتوى راشد الغنوشي ليست بدعة في الإسلام، بل جاءت لتجاري الواقع المُعاش؛ فقد أصبح مواطنو الدولة، المسلمون وغيرهم من أتباع الديانات الأخرى، شركاء في بنائها والدفاع عنها في جميع الميادين السياسية والاجتماعية والعسكرية. لذا بَطُلَ التمييز ضدهم، بل أصبح عائقا حقيقيا في بناء دولة المواطنة والمساواة أمام القانون.

خامسا- منع الزواج الضرائري (تعدد الزوجات): تخبرنا مصادر التراث الإسلامي، أن الصحابي أبا ذرّ الغفاري رفض آية تعدد الزوجات. وكان المعتزلة والفاطميون والموحدون الدروز ومعهم أتباع محمد عبده والأخوة الجمهوريون في السودان، فقد أفتوا بمنع الزواج الضرائري، لأن منع الزواج الضرائري ليس تعديا على إرادة الله كما ورد في القرآن، بل رخصة منحها الله للرجال بشروط معينة، وأولها العدل، ولأن ليس بإمكان الرجال أن يعدلوا بين زوجاتهم، فـ«العدل لله وحده»- كما يرون. هذا ناهيك عن الأذى العاطفي والنفسي الذي يسببه الزوج لامرأته الأولى في حال زواجه من ضرّة لها، والتوترات في البيت والأسر، الأمر الذي من شأنه أن يحدث خللا بالنسيج الأسري[25].

---

[25] - رغم كون غالبية الفلسطينيين مسلمين بدرجات إيمان مختلفة، إلا أن الثقافة الشعبية تخبرنا عن تحديها للزواج الضرائري. فيقول كل من إبراهيم مهوي وشريف كناعنة عن موقف الثقافة الشعبية الفلسطينية من ظاهرة الزواج الضرائري قائلين: «والحقيقة التي تتجلى أن تعدد الزوجات لا يظهر بصورة إيجابية في أي من الحكايات الشعبية [10 من 45 قصة شعبية جمعاها وحللاها] التي تجسده القصة وليس هنالك عرف أو ممارسة اجتماعية توحي بتسلط الرجل على المرأة كما يوحي به تعدد الزوجات، فهو يجعل النساء

سادسا- المساواة في الميراث: في العاشر من شهر أيار من عام 2004 كان مجلس الشورى الإيراني/ برلمان الجمهورية الإسلامية الإيرانية، قد سنّ قانونا يساوي النساء بالرجال في كل ما يتعلق بالميراث[26]. وبهذا يكون برلمان دولة تعتمد الشريعة الإسلامية، مصدرا للتشريع، قد أبطلت النص القرآني الخاص بالميراث، والذي لا يعدل بين الرجال والنساء، بنصّ يعدل بينهم. إبطال النصّ القرآني الخاص بالميراث أو تجاوزه، ليس معناه كفراً أبدا، بل يمكن اعتباره من «الرحمة» أي رحمة الوالدين ببناتهما، و«إحسان زائد لهن». واليوم في العصر الذي نعيشه ونعايشه أصبحت النسوة تشاركن مشاركة فعالة في إعادة إنتاج الأسرة والمجتمع؛ فيعملن بكافة قطاعات العمل في الحياة العامة، فضلا عن العمل المنزلي. أي أن النساء يعملن ساعات عمل فعلية أكثر من الرجال. لذا يحق لهن الاستمتاع بحصتهن كاملة من جهدهن وعملهن، سواء في المنزل أو خارجه. بالطبع، يدرك متخذو القرار في إيران وغيرها أن توزيع الثروة على أكبر عدد من الناس من شأنه أن يصوّب عملية التنمية المجتمعية بما تخدم الفئات الشعبية، والنساء في صدارة الطبقات الشعبية.

إضافة إلى ما تقدم، نطرح أمرا هاما أصبح سائدا واقعنا الفلسطيني: من البدهي أن كل زوجين بحاجة إلى بيت لهما ولأسرتهما لاحقا. والبيوت تقام على هذه الأرض وليس في البحار أو الفضاء. وبما أن دولة «إسرائيل» احتلت وصادرت غالبية أراضينا، سواء في حدود عام 1948، أو حدود عام 1967، فقد أدى ذلك إلى ارتفاع سعر الأراضي ارتفاعا

في وضع يتنافسن فيه بشأن عواطف الرجل. وفي الحكايات كما في الحياة، يمثل هذا التعدد عمل تمزق لوحدة العائلة ووئامها» ويضيفان: «واضح في الحكايات أن تعدد الزوجات كريه عند النساء ومنبوذ من المجتمع» (مهوي وكناعنة؛ 2001: 21- 22).

[26] - ينظر: www.albainah.net\index.aspx?fanction=Item&id=727&lang

خياليا ليس له شبيه في العالم! مثلا: يتراوح سعر دونم أرض العمار بين 150 ألف و500 ألف دولار في القرى والمدن الفلسطينية. الأمر الذي يشكل عائقا بين الشباب والزواج، وبين الأسرة وإنشاء بيت للأسرة كما ترغبه. هذه العقبات تظهر جلية وقاسية للغاية عندما لا يرث الشاب- المطلوب منه إقامة بيت الزوجية- مترا مربعا واحدا من والديه، لأنهم لا يملكونه؛ في أن تحرم أسرة زوجته التي تملك بعض الدونمات تحرم ابنتها من حصتها في الميراث- الأرض، لكي تسهم في إقامة منزل الزوجية. هذا الوضع لا معقول بالمرّة ويقترب من حدود التعذيب، تعذيب أسرة الزوجين، حين تضطر الأسرة إلى الاقتراض لشراء أرض وبناء بيت أو شراء بيت.. فلو أُعطيَت الابنة/ النساء حصتهن في الميراث لانخفض سعر أراضي العمار، ووفر الزوجان جهودا وسنوات طويلة من العمل من أجل شراء أرض وإقامة بيت الزوجية[27]. صحيح أن الحالة لا تكفي لكي نؤسس قوانين وقواعد مساواة بين الرجال والنساء والناس بمختلف أعراقهم، إلا أنها محرك هام لعملية النضال.. المساواة. ويجب التأكيد على الأخلاق كسبب هام آخر للمساواة بين الجميع.

إن الرسالة التي جملها كل من الذين تجاوزوا حدود الشريعة بحكم

---

(27) - سأضرب هنا مثلا على ما أقوله: الشركس الذين يقطنون في فلسطين هم مسلمون سنّة كبقية مسلمي فلسطين والشركس يمنحون بناتهن حصتهن في الميراث كما الأبناء بالتساوي، لا يرفع الشركس سعر أرض العمار ولا يتاجرون بها، لأن كل فرد في الأسرة، البنات والأولاد يحصلون على حصتهم من ميراث العائلة بكلمات أخرى: إنهم يوفرون عمل الزوجين لسنوات طويلة من أجل شراء أرض للعمار، الأمر الذي يدفعهم للعمل أقل أو استثمار المبلغ المفترض في تطوير المنزل والأسرة ولنا أن نضيف أيضاً: إن حملة الميراث التي بدأتها «نساء وآفاق» لا تندرج في باب الحقوق الشرعية للنساء فقط، بل في باب تخفيف أعباء إقامة بيت وحياة زوجية أكثر توازنا بين الرجال والنساء وأكثر أمنا للمجتمع بأكمله

الضرورة التي اقتضاها الواقع المُعاش هي: صحيح أن القرآن منزل ومقدس ويجب تطبيق تشريعاته، ولكن هنالك صحيح آخر، ألا وهو مصلحة المجتمع والأمة وحياتها الاجتماعية وواقعها المُعاش، فالأمة ليست في خدمة القرآن، بل القرآن في خدمة الأمة. وإذا فرض علينا الاختيار بين «قداسة النصّ» ومصلحة الأمة، فإننا نفضل بالضرورة مصلحة الأمة، لأن القرآن/ الإسلام جاء ليخدم الأمة أساسا! الأمور واضحة ولا لبس فيها! هذا ما نفهمه من تجاوزات عمر بن الخطاب والفقهاء الذين تجاوزوا العديد من الفتاوى التقليدية التي تحرم النساء من حصصهن في الثروة المجتمعية الفكرية والاقتصادية.

وعليه، أولا: إن مكانة النساء وواقعهن المُعاش في حراك وتغيّر مستمريّن. وخلال معايشة الواقع بعقلية نقدية بعض الشيء، يمكن لنا أن نتلمس التغير الحاصل، فمكانة النساء اللواتي في عقدهن الرابع- والخامس إلى حدّ قريب- هو ليس كمكانة النساء اللواتي في عقدهن الخامس والسادس. هذا ما نلمسه في الحياة العامة، والتغير الحاصل داخل الأسر التي نعيش فيها. ويمكن القول إن التعبيرات الملموسة عن التغيّر الصامت في المجتمع والسياسة لا تزال أقل كثيرا مما ينشده مجتمع يعيش في القرن الحادي والعشرين.

وبعد؛

كنت قد شاركت في مؤتمر «نحو مدخل عربي- إسلامي لدراسة الإنسان والمجتمع»، الذي نظمه «مركز دراسات التراث والمجتمع الفلسطيني في جمعية إنعاش الأسرة» في البيرة يوم الأحد الموافق 18 / 3 / 2007، وقد شارك في المؤتمر كوكبة من العلماء والبحاثة الفلسطينيين. وقدمت ملخصا بما يحتويه هذا الكتاب من معلومات وتحليلات وأفكار. طرحت بعض النسوة بين الحضور السؤال الآتي، وهو عمليا إشكالية كبرى: أنت رسمت

مكانـة النـساء المـسلمات بـصورة ورديــة، إلا أننـا عنـدما تقـارن مكانتـهن ووضعهن باليهوديـات والمسيحيات تنقلب الآيـة رأسًا علـى عقـب!! أجبـت: نعم. فأنا قدمت دراسـة فكريـة في النـصوص الدينيـة الـتي تحـدد مكانتـهن. وقد أشرت في المقدمة إلى أن حراك وديناميكية الواقع المُعاش والأفكار التي تسود فيه، هـي الـتي تحـدد مكانـة النـساء فيـه، ولـيس العقيـدة أو الـشريعة.. أما إذا أردن معرفـة الأسـباب الحقيقيـة لأسـباب هـذه الهوّة، فـالجواب لـيس عنـد العقيـدة أو الـشريعة، بـل عنـد مجمـل الحالـة الـسياسية الاجتماعيـة للمجتمعات التي تدين بالإسلام، فالطريق شاق وطويل!

قائمة المصادر والمراجع

بالعربية

- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد (1985)- كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل- تحقيق محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة: بيروت: دار الجيل (5 ج).

- ابن ميمون، موسى (1993)- دلالة الحائرين- تحقيق ودراسة حسين أتاي- القاهرة- مكتبة الثقافة الدينية.

- ابن ميمون، موسى (2007)- الرسالة اليمنية- تقديم وتحقيق أحمد أشقر (مخطوط غير منشور).

- ابن شعبة، الحسن بن علي (1969)- تحف العقول عن الرسول- تقديم محمد الحسين الأعلمي- بيروت: دار الأعلمي للمطبوعات.

- ابن رشد، أبو الوليد (1998)- الضروري في السياسة: مختصر كتاب السياسة لأفلاطون- نقله عن العبرية إلى العربية أحمد شحلان، وقدم له وشرحه محمد عابد الجابري- بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

- إعلاوي، نزيه محمد (1995)- رسم الشخوص في القرآن الكريم- عمان: قسم الدراسات العليا، الجامعة الأردنية (أطروحة دكتوراه غير منشورة).

- إمام، عبد الفتاح إمام (1996)- الفيلسوف المسيحي والمرأة- القاهرة: مكتبة مدبولي.

- أشقر، أحمد (2004)- «مكانة وصورة المرأة في اليهودية/ تحول (= رحاب) إلى رجل»- كنعان، 116 (ص 62- 67).

- أشقر، أحمد (2004)- «عقبات ترجمة العهد القديم إلى العربية: هل اغتصب حمور دينه؟»- كنعان، 119 (ص 59- 65).

- أشقر، أحمد (2005)- «صراع السوسيولوجيا واللاهوت حول إمامة النساء: من أجل إمامة الأمة لنفسها»- كنعان، 122 (ص 15- 21).

- أشقر، أحمد (2005)- «قراءة في السيرة والملحمة: عنترة العربي ويفتاح اليهودي»- وجهات نظر، 73 (ص 44- 47).

- حجاج، كاظم (2001)- المرأة والجنس بين الأساطير والتراث- بيروت: دار الانتشار العربي.

- خياط، سلام (1992)- البغاء عبر العصور: أقدم مهنة في التاريخ- لندن: دار الريّس.

- زكي، أحمد (1995)- انزعوا قناع بولس عن وجه المسيح- بيروت: دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م. م.

- الشنطي، عماد الدين (1997)- موقف بولس من تعاليم عيسى عليه السلام- جامعة آل البيت، كلية الدراسات الفقهية والقانونية (أطروحة ماجستير غير منشورة).

- العلوي، هادي (1996)- فصول عن المرأة- بيروت: دار الكنوز الأدبية.

- العلوي، هادي (1997)- محطات في التاريخ والتراث- دمشق: دار الطليعة الجديدة.

- الغنوشي، راشد (1993)- حقوق المواطنة: حقوق غير المسلم في المجتمع الإسلامي- فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

- مهوي، إ وكناعنة، ش (2001)- قول يا طير.. نصوص ودراسة في الحكاية الشعبية الفلسطينية- ترجمة جابر سليمان وإبراهيم مهوي- بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

- ملكاوي، بثينة محمود (2000)- القصص القرآني ومناسبتها للسياق القرآني- الأردن: جامعة آل البيت، كلية الدراسات الفقهية والقانونية (رسالة ماجستير غير منشورة).

- ولفنسون، إسرائيل (1936)- موسى بن ميمون- حياته ومصنفاته- مصر: لجنة التأليف والترجمة.

- يزبك، محمود (1997)- «اليهود يحتكمون في المحكمة الشرعية: نماذج من المحاكم الشرعية في حيفا في أواخر العهد العثماني»- الأسوار (17)، ص 116- 144.

- العهد الجديد.

- العهد القديم

- القرآن.

- المعجم الوسيط (1960- 1961)- قام بإخراجه إبراهيم مصطفى... [وآخرون]؛ أشرف على طبعه عبد السلام هارون- مصر: مطبعة مصر.

بالعبرية

- إيلان، طال (2000)- «نافذة على قمة الفقهاء- النساء اليهوديات أيام الهيكل الثاني»- في: نافذة على حياة النساء في المجتمعات اليهودية- تحرير يعل عتسمون: القدس: مركز زلمان شزار لتاريخ إسرائيل (ص 47- 61).

- بن ميمون، موشه (1987)- «مقالة في بعث الموتى»- في: رسائل الرمبام، الجزء الأول- تحقيق يتسحاق شيلات- القدس: مصاعد بجانب «بركة موشه».

- وولف، عومي (2204)- خرافة الجمال: عن استخدام مؤثرات جمالية ضد النساء- من الإنجليزية: درور فمنطال وحانه نافيه- تل أبيب: الكيبوتس الموحد.

- يوسف، عوفاديه (1974)- كتاب الأسئلة والأجوبة يُفتي- القدس: إصدار بمساعدة فورات يوسف وتعليم وتدريس وصوت يعقوب (جزءان).

- لفين- ملاميد، رينه (2000)- «نساء في مجتمعات المُكرهين في الأندلس بنهاية القرن السادس عشر»- في: نافذة على حياة النساء في المجتمعات

اليهودية- القدس: تحرير يعيل عتسمون: مركز زلمان شزار لتاريخ إسـرائيل، (ص 209- 224).

- يشعياهو، ليبوفتس (1993)- إيمان الرمبام- تل أبيب: وزارة الأمن.

- عتسمون، يعل (٢٠٠٠)- «اليهوديـة وإقـصاء النـسـاء مـن الحيّـز العـام»- في: نافذة على حياة نساء يهوديات في مجتمعات يهودية- تحرير يعل عتسمون- القدس: مركز زلمان شزار لتاريخ إسرائيل، (עמ' ١٣- ٤٣).

- لتسروس- يافه، حافا (١٩٧٧)- «هل تـأثر الرمبام مـن الغـزالي؟»- في: ترنيمة لموشه: دراسـات في التـاخ والعلـوم اليهوديـة- تحريـر: إليـاهو دوف آيلخلـر، يعقوب حييم طيجاي ومردخاي كوجن- إنديانا (עמ' ١٦٣- ١٦٩).

- شـيلات، يتـسحاق (١٩٨٧)- رسـائل الرمبـام: مقالـة في بعـث المـوتى (المجلد الأول)- القدس: مصاعد إلى جانب «بركة يوسف».

- פרידמן, ע' מרדכי (٢٠٠٠)- "ההלכה כעדות לחיי המין אצל היהודים שבארצות האסלאם במי הביניים: כסוי הפנים ונישואי 'מתעה'"- בתוך: **אשנב על חייהן של נשים בחברות יהודיות**- עורכת יעל עצמון- ירושלים: מרכז זלמן שזר לתולדות ישראל, (עמ' ١٤٣- ١٦٠).

- קרמר, יואל (٢٠٠٦)- השפעת המשפט המוסלמי על הרמב"ם: אל אחכאם אלח'מסה- בתוך: **תעודה**, מס' ١٠ (עמ' ٢٢٥- ٢٢٤).

- רודד, רות (٢٠٠٠)- "נשים מוסרות מידע, משכילות ומלומדות בתולדות האסלאם"- בתוך: **פעמים**: **פרקי עיון במורשת ישראל במזרח**- (עמ' ٤- ٣٠).

- שכטרמן, דבורה (١٩٧٨)- "סוגית החטא הקדמון והפרשנות לדברי הרמב"ם בהגות היהודית במאות השלש-עשרה והארבע-עשרה"- בתוך: **דעת; כתב עת לפילוסופיה יהודית וקבלה**, ٢٠ (עמ' ٦٥- ٨٩).

- التكوين الكبير.
- مشنّه توره للرمبام.
- التلمود البابلي.
- التلمود الأورشليمي.
- «التناخ».

مواقع متفرقة على شبكة الإنترنت

- طه، عمر (2007)- مفتي الديار المصرية: الإسلام لا يمنع المرأة من تولي رئاسة الدولة

http://www.asharqalawsat.com/details.asp?section=1&issue=10296&article=405013

(تاريخ الدخول بتاريخ 5. 11. 2004).

- شحرور، محمد (2000) — نحو أصول جديدة في الفقه الإسلامي-

http://www.shahrour.org/bookListPages.php?cid=271&pid=468&page=295&bid=4&imagetopurl=drasat4.jpg

(تاريخ الدخول بتاريخ 5. 11. 2004).

- فضل الله، مريم- وأد البنات في العصر الجاهلي-

http://www.balagh.com/woman/trbiah/6f0z4e8h.htm

(تاريخ الدخول بتاريخ 5. 11. 2004).

- البينة (موقع على الإنترنت) بتاريخ 5.11. 2004

www.albainah.net\index.aspx?fanction=Item&id=727&lang=.

- مكانة المرأة في الشريعة اليهودية، موقع: www.daatemet.org (تاريخ الدخول بتاريخ 5. 11. 2004).

الفهرس

مكانة النساء
في العقائد اليهمسلامية

من المسؤولية عن الخطيئة الأولى إلى التبرئة

تعتبر هذه الدراسة دراسة تأصيلية لمكانة النساء في العقائد اليهمسلامية. وسيكون اعتمادنا على المصادر الأولية: "التناخ" والعهد الجديد والقرآن، ثم على الآداب الكلاسيكية الأخرى، التي من شأنها أن توضح ما بَهُم في المصادر الأولية. ولن نعتمد إلا بالقليل على المراجع المعاصرة. والهدف، هو تأصيل هذه الدراسة وليس نقاشاً مع دراسات أخرى. فقد أنشأنا هذه الدراسة من منطلق علم الأديان المقارن، لكي ندلل على أن الأديان تنسجم انسجاماً مع الواقع الذي تعايشه من خلال السيرورة والصيرورة التاريخيتين؛ فما نراه في اليهودية يختلف بعض الشيء عما نراه في المسيحية، وما نراه في الإسلام يتعارض كلية مع ما نراه في اليهودية والمسيحية، كما سينجلي لنا من صفحات هذا البحث، وذلك بسبب اختلاف المجتمعات والحقب التاريخية والمحركات والدوافع التي تحركها.

إن مكانة النساء وواقعهن المُعاش في حراك وتغيّر مستمرين. وخلال معايشة الواقع بعقلية نقدية بعض الشيء، يمكن لنا أن نتلمس التغير الحاصل، فمكانة النساء اللواتي في عقدهن الرابع- والخامس إلى حدّ قريب- هو ليس كمكانة الن
في عقدهن الخامس والسادس. هذا ما نلمسه في الـ
والتغير الحاصل داخل الأسر التي نعيش فيها. ويمك
التعبيرات الملموسة عن التغيّر الصامت في المجتم
لا تزال أقل كثيراً مما ينشده مجتمع يعيش في القر
والعشرين.






9789933456375


نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع